صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها

رواية

مها الدسوقي

دار كتاب للنشر والتوزيع



مسئول النشر

طارق رمضان

مدير التوزيع

عمر عبد السميع

مدير العلاقات

مها عادل

الطبعة الأولى

الكتاب : صفراء فاقع لونها

تأليف : مها الدسوقى

تصنيف الكتاب : رواية

مصمم الغلاف : عبد الرحمن سندوبى

إخراج : أحمد عبد الرحمن

المقاس ١٤ × ٢٠

رقم الإيداع : ٢٠٤٠٥ / ٢٠١٨

الترقيم الدولي : 3 - 27 - 6597 - 977 - 978

العنوان : ٤٧ تقاطع الفلكي مع محمد محمود - القاهرة - مصر

التليفون : ٠١٠٩٧٥٥٣٣٢٨

Email : darkitabone@gmail.com

إهداء ..

لنجومي التي تتلألأ على الأرض..

وتؤنسني في ظلمة الليل البهيم .

صَفْراءُ فاقِعٌ لَونُها

نعم..ما جال بخاطرك للوهلة الأولى صحيح، فما أشبه «مها» ببقرة بني إسرائيل، هي لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك، شعرها أصفر غجري مبعثر بعشوائية وحرية، تماما كشخصيتها التي تنبعث منها هالة صفراء، هي نموذج مثال لعلم دلالات الألوان في طاقة اللون الأصفر، فهي تنشر الأمل والتفاؤل على كل من حولها مع إحساسها الدائم بالضياع والحيرة، ومع ذلك .. كانت شديدة الثقة بنفسها، عنيدة لينة في آن، لم يكسرها شخص أو زمن، قلبها إسفنجة صفراء يمتص الصدمات ويمتص دموعها قبل أن تصل إلى عينيها، ترتدي الأصفر معظم الوقت، مسلّمة لا شية فيها، هي فعلا وحرفيا .. صفراء فاقع لونها تسر الناظرين.

لكن الفرق بينها وبين بقرة بني إسرائيل أنها تعيش في مجتمع ذبحها دون أمر إلهي..بدم بارد، ولأنها شخصية لا يعرف الموت لها سبيل، ذبحت

آلاف المرات وما زالت واقفة متحدية.. هي لم ولن تركع !

***

أفاقت من غيبوبتها الطويلة على صداع شديد يقرع رأسها، فتحت عينيها ببطء على وجه سمراء بشوشة تقول لها بلهجة نوبية : «الحمد لله على سلامتك يا دكتورة «مها». لم ترد، أغلقت عينيها مرة أخرى، يزعجها جدا صوت اثنان يتحدثان معا بلغة غير مفهومة، أخذت تهز رأسها يمينا ويسارا بحركات تلقائية غير مقصودة ..

سألتها الممرضة النوبية وهي تمازحها: «مش حضرتك دكتورة مها برضو؟» .. أجابتها بعد فترة غير قصيرة : «ما بعرف» !

***

«ميس نادية» ممرضة تعمل بالمشفى منذ أكثر من عشرين عاما، تعتبر التمريض مهنة إنسانية ورسالة سامية، اختارها الله تعالى لنشرها على الأرض، رسالة الرفق بالمتألمين والرحمة لمن يعانون أوجاعا تنهكهم، ماهرة جدا في عملها، يحبها الجميع كبارا وصغارا، مرضى وأطباء وزملاء، تزيّن وجهها ابتسامة تزيدها فوق الجمال جمالا..اسمها «نادية» وهي فعلا نادية.

أعطت «ميس نادية» اهتماما خاصا لهذه الحالة تحديدا دون سائر المرضى، ربما لأنها تُركت وحيدة، أو لأنها تعلم أن حالتها غير مستقرة بحكم خبرتها في مثل هذه الحالات.

على كل الأحوال.. هي من تولّت استلام المتعلقات الشخصية الخاصة ب «مها» من ابن خالها الذي أحضرها إلى المشفى مغشيا عليها، وسدّد التكاليف المبدئية التي تغطّي دخولها وإجراء الفحوصات اللازمة لها، موضحا أن «مها» كانت في

زيارة لبعض الأقارب الوافدين حديثا من سوريا، وأنها تعثّرت في الحمّام وسقطت فاقدة الوعي.

وبطبيعة الحال اتّخذ المشفى الإجراءات اللازمة في التحقق من الأوراق الثبوتيّة الخاصة ب «مها» و «أنس» ابن خالها، وسجّل «أنس» في الاستعلامات عنوانه في القاهرة ورقم هاتفه المحمول، والتزم بتسديد باقي التكاليف المطلوبة لعلاج ابنة عمته، لكنّه وضّح أنّه يجب أن يعود للقاهرة لضرورة عمل حتمية ولا يستطيع البقاء في أسوان معها، تاركا ل «ميس نادية» حقيبة «مها».

فتحت «ميس نادية» الحقيبة، وجدت بها بعض الأوراق والمستندات الرسمية المستخرجة من سوريا، وبعض المتعلقات الشخصية. لم يقتلها الفضول لتفتّش الحقيبة تفتيشا دقيقا، لكن لفت نظرها تلك الورقة الصفراء المعطّرة التي تضمّنت خاطرة بعنوان «صفراء فاقع لونها».

أعجبتها تلك الكلمات التي بدا لها أنها تصف المرأة النائمة أمامها وصفا أدبيا بليغا، قرأتها أكثر من مرّة لشدّة إعجابها بها، ولاحظت أن الورقة لا تحمل اسم أو توقيع كاتبها.

***

مر ما يقرب من شهر على وجود «مها» في المشفى، هي مدة طويلة على مجرّد انزلاق في أرض حمام مبتل. لكن السبب هو أن هذه السقطة سببت لها فقدانا في الذاكرة التراجعيّة على حد تشخيص الأطباء، هي غير قادرة على تذكّر الأحداث الماضية القريبة والبعيدة التي مرّت بها قبل سقوطها في الحمّام.

شرح لها الطبيب المتابع لحالتها شرحا مبسطا ووافيا يفيد بأن الذاكرة العَرَضيّة هي التي تتأثّر بفقدان الذاكرة التراجعي وليست الذاكرة الدلاليّة، بمعنى أنها تستطيع أن تتذكّر مثلا من هو زعيم بلدها، الألوان، الأشياء، وما إلى ذلك.. لكنّها لا

تستطيع أن تتذكّر أحداث الماضي. كما أن الذكريات الإجرائيّة (مثل المهارات والعادات وكيفيّة تنفيذ المهام اليوميّة) لم تتأثّر على الإطلاق.

طوال هذه المدّة كانت تحاول أن تتذكّر أي شيئ عن حياتها السابقة، حاولت الاتصال بابن خالها غير مرّة لكن هاتفه المحمول مغلق دوما، لم تسأم من مطالعة أوراقها الثبوتيّة ومتعلّقاتها الشخصية بتركيز واهتمام، لعلّها تصل إلى شيئ.. أيّ شيئ..

كان معها ملف شفاف يحتوي على جواز سفرها، بيان ولادة، شهادة علامات البكالوريا، وشهادة تخرّج صادرة من جامعة «حلب» تفيد بأنها قد تخرّجت في كليّة الطب.

هي طبيبة ولا تفهم شيئا من كلام الأطباء لبعضهم! ولا كلمة واحدة ! وعندما سألت الطبيب عن السبب المحتمل لذلك أجابها إجابة منطقيّة شافية.

من وجهة نظره أن السبب في ذلك أن اللغة التي درست بها الطب في سوريا هي اللغة العربية، أما في مصر فالطب يدرّس باللغة الإنجليزيّة، لذا هي لا تشعر بأن المصطلحات المستخدمة في حديث الأطباء مألوفة على مسامعها، كما أنها بطبيعة الحال لا تتذكّر إن كانت قد استكملت دراستها للحصول على درجة علمية أعلى كالماجستير أو الدكتوراه أم لا، خاصة وأنها ليست حديثة التخرّج، فهي في بداية الثلاثينات، مما يعني أن هناك احتمال بأن تكون قد حصلت على درجة علميّة أعلى، وهناك احتمال آخر قائم بأن تكون قد أجّلت دراستها العليا بسبب الأحداث السياسية في سوريا، مما أثّر على مستواها العلمي والمعرفي بالطب.

لم تشغلها حياتها العلميّة والمهنيّة كما شغلتها حياتها الاجتماعية. هل هي زوجة؟ هل هي أم؟ مَن ينتظرها بعد أن تخرج من هنا؟ ذلك الأحمق ابن

خالها - كما تسميه في نفسها كلما تذكّرته - لا يرد على هاتفه المحمول لأنه مغلق طوال الوقت !

في وسط أوراقها الثبوتيّة وجدت بطاقة صغيرة تحمل عنوانا في القاهرة، في حي مصر الجديدة، ومكتوب عليها مقر الجالية السورية بالقاهرة، طُبعت عليها أرقام هواتف محمولة أضيف إليها رقم آخر مكتوب بخط اليد كُتِبَ بجواره «دينا».

أسرعت كالممسوسة في الاتصال بالرقم المكتوب بخط اليد من هاتف «ميس نادية» التي لم تمانع أبدا بطبيعة الحال.. لترد عليها «دينا»..

- آلو مرحبا ..

- دينا؟

- نعم.

- أنا مها.

- الحمد لله على سلامتك حبيبتي.. اشتقت لك كتيراً وحياة الله.. إنتي منيحه؟

- الحمد لله بس..مانّي متذكره شي.. ما معي حدا .. ما بعرف لوين بدّي روح هلّا !

- بعتذر منك حبيبتي.. لا تزعلي منّي الله يوفقك ، ما قدرت أكون معك لأن الظروف كتير صعبة، راح فهمك كل شي لما بتيجي ع القاهرة، بس تطلعي من المشفى وتركبي القطار وراح كون ناطرتك بالمحطة، ضروري تحاكيني ودغري بتلاقيني إدّامك.

شعرت «مها» بعد هذه المكالمة براحة كبيرة، هي لا تعلم ما علاقتها ب «دينا» ، هل هي أختها ؟ ابنة خالها؟ ربما تكون شقيقة «أنس» الأحمق ذو الهاتف المغلق دوما والذي أخبروها عنه في المشفى.

وعلى الرغم من كل تلك الألفة والتعاطف الذي أحسّته من المحيطين، وتحديدا من «ميس نادية» ،

تلك النوبيّة الحانية الجميلة روحا ونفسا، إلا أنها كانت تشعر أيضا بالغربة والحيرة تأكل نفسها، هي في اللازمان واللامكان واللاذكريات، لكن بعد أن حققت اتصالها ب «دينا» اطمأنّت.. اطمأنّت لأن جزءاً منها عاد إليها !

حان وقت وداع أسوان بعد أن أكّد الطبيب المعالج ل «مها» استقرار حالتها، هي لا تزال تعاني من فقدان الذّاكرة التراجعية ولم تتذكّر أي شيئ قبل حادثة انزلاقها في الحمّام التي أخبروها عنها، لكن الطبيب أكّد لها وجود احتمال كبير في أن تتعافى وتعود لها الذاكرة تدريجياً..

قد يستغرق ذلك أياماً، شهوراً أو ربما سنوات، حيث سجّلت الإحصاءات نسب غير قليلة في الشفاء من فقدان الذاكرة التراجعيّة كلياً أو جزئياً في بعض الدراسات. وأعطاها الطبيب بطاقة تحمل عنوان مركز طبي في القاهرة يديره أحد أصدقائه

ويهتم بمتابعة الحالات المشابهه لحالة «مها»، ونصحها بالمتابعة الطبية فيه في حال وجود أي جديد أو شكوى معينة تحتاج بسببها أن تراجع طبيبا مختصاً.

كم هي جميلة أسوان ! جميلة بطبيعتها الساحرة وبأناسها الطيبين، أكثر ما يميّزهم النقاء. في أثناء إقامتها بالمشفى كانت تطل من نافذة حجرتها على منظر خلّاب للنيل، وكأنه يغسل بسريانه روحها ومخاوفها من المستقبل، وعلى ضفافه نبت الأخضر بكل درجاته، ما أشبه الزرع بهؤلاء الناس ! يحبّون الخير والعطاء بشكل لافت آسر للقلب، وكانت تتابع أحياناً بعض الصغار وهم يلعبون ويضحكون في مرح وبراءة باهتمام، متسائلة في نفسها: هل كنتُ مثلهم يوماً؟ هل لي أطفال؟ ربما يلعبون ويمرحون الآن في مكان ما مثل هؤلاء.. هي تعاني من فقدان الماضي، لكنها لن تنسى أسوان وأناسها أبداً كما

عاهدت نفسها وهي تحتضن ذلك المنظر الخلّاب بعينيها للمرة الأخيرة من نافذة حجرتها.

***



هاتفت «دينا» من أحد أكشاك بيع الجرائد في محطة القطار قبل أن تتجه إلى الرصيف الذي عليه قطارها، أكّدت أكثر من مرة على «دينا» موعد وصولها، لم تستطع أن تخفي قلقها خاصةً وأنها لا تعرف «دينا» ، أو بالأحرى لا تتذكرها، ردّت

عليها الأخرى ممازحة لتخفف عنها توتّرها: «بلكي نسيتيني إنتي ..بس أنا ما بنساكي بنوب، لا تخافي، ديري بالك ع حالك».

لم يمنعها قلقها من أن تنتبه لتلك الصورة التي تتصدّر الصفحات الأولى لجرائد ذلك اليوم، ٣ سبتمبر ٢٠١٥، صورة لطفل مات غرقاً، منكفئ على وجهه، يرتدي كنزة حمراء وبنطال قصير كحلي، وجدوه على أحد الشواطئ التركية، جالت عيناها على الخبر بسرعة، لكنها ركّزت فقط على الصورة وما كتب تحتها.. الطفل السوري:إيلان كردي.

لم يكن أمامها متسع من الوقت لقراءة الخبر بدقّة وعناية، فهناك قطار عليها اللّحاق به، كما أنها لم تشترِ الجريدة ولا تعلم لماذا ! ربما بسبب خوفها من أن تواجه نفس المصير غرقاً وهي تصارع الضياع في بحر ماضيها المفقود وتلفظها ذكرياتها جثّة منكفئة على سواحل القاهرة !

مع بدء تحرّك القطار ومغادرته رصيف المحطّة، أمسكت بتلك الورقة وقرأتها للمرة الألف، قرّبتها من أنفها لتشتمّ عطراً قد يذكّرها بأي شيئ..

صفراء فاقع لونها ! ترى ماذا واجهت في حياتها الماضية جعل منها تلك الأسطورة الموصوفة في سطور؟ هي تشعر أنها المقصودة بهذه الأوصاف، فشعرها أصفر غجري مبعثر بحرّية ومعظم ملابسها صفراء، هي البطلة المقصودة حتما، ومن المؤكد أنها احتفظت بهذه الورقة ضمن أوراقها الثبوتيّة لأهميتها..لأنها عنها، لكن..ماذا فعل بها المجتمع لتُقارَن ببقرة بني إسرائيل؟!

وهي غارقة في ذلك البحر اللجيّ من الأفكار والتساؤلات وجدته أمامها، في المقعد المقابل لها.. الله ! ما هذا الجمال وما هذه الهيبة والأناقة ؟! أبهرها واختطف أنفاسها من النظرة الأولى، تلك النظرة

التـي تخـترق القلـب وتسـتقر فيـه للأبـد، ولا يعـود بعدهـا كـما كان، أو بالأحـرى.. ولا يعـود بعدها قلبك !

هـو رجـل يبـدو حديـث العهـد بالأربعينيـات، خمـريّ البـشرة، شـعره أسـود فاحـم، ناعـم وكثيـف، عينـاه نهـرا عسـل مصفّـى، جميـل القسـمات، ابتسـامته السّـاحرة جعلتهـا لا تسـتطيع مقاومـة النظـر إليـه ومبادلتـه الابتسـامة بأخـرى سـحرته هـو الآخـر، ضربـة مزدوجـة موفّقـة يـا «كيوبيـد» أحسـنت !

***

شـغل المقعديـن المجاوريـن لهـما رجـل وامـرأة مـن النوبـة، يبـدو أنهـما زوج وزوجـة، يتشـاجران ويصيحـان في وجـه بعضهـما بلهجـة حـادة غـير مفهومـة ومضحكـة في نفـس الوقـت ! . لم تتمالـك ضحكتهـا التـي انفجـرت مـن بـين شـفتيها المبتسـمتين واللّتـين فشـلتا في منـع تلـك الضحكـة العفويّـة مـن الانفجـار، نظـرت بسرعـة مـن النافـذة منعـاً للإحـراج، ثـمّ نظـرت لـه، وجـدت عـلى

وجهه ابتسامة عريضة مشابهة لابتسامتها ويبدو أنها لنفس السبب..

سألها بحميميّة وكأنه يعرفها من زمن بعيد : «تحبّي نغيّر مكاننا؟».

أومأت برأسها موافقة، جلسا هذه المرة متجاورين، نظر إلى الورقة الصفراء في يدها خلسة وقرأها من طرف خفي، وكان معه جريدة يقرأ فيها خبر غرق الطفل إيلان كردي، وجدتها فرصة سانحة لتبدأ هي الحديث هذه المرة، سألته باهتمام: «مين إيلان كردي؟ شو قصتو ها الولد؟»

- «هو حضرتك مش مصرية ؟»

- «سوريّة»

- «أنا قلت كده ..أجدع ناس»

تبادلا ابتسامة رقيقة شرع بعدها في قراءة جزء من الخبر المكتوب في الجريدة: «إيلان طفل سوري

من أصل كردي لم يتجاوز الثالثة من العمر، مات غرقاً عندما كان بصحبة أهله وهم يحاولون الوصول إلى اليونان استعداداً لمواصلة الرحلة لكندا، وكانوا في قارب صغير انطلق من سواحل تركيا وهو محمّل باللاجئين السوريين الهاربين من جحيم الحرب الأهلية، وقد تُوفّي بعد أن انزلق من يد والده عقب انقلاب القارب في البحر المتوسط، وتُوفّي معه في الحادث والدته وأخوه، وتم العثور على جثة إيلان على شاطئ (بودروم) في تركيا، ذلك الحادث المأساوي هزّ العالم وأعطى بُعداً آخراً لمعاناة اللاجئين في كل مكان».

سكت قليلاً ثم قال معقّباً: «وكأنهم يحاولون أن يجعلوا من إيلان كردي أيقونة لمعاناة الشعب السوري ! وكأن الضمير العربي سيصحو ! ..منذ سنوات كان الطفل «محمد الدرة» ووالده أيقونة للانتفاضة الفلسطينية، وتفاءلنا وقتها بأن العرب

سيكون لهم شأناً آخر، ثم ماذا ؟! لا شيئ.. نحن العرب لسنا بحاجة لأيقونات كي نستفيق، نحن بحاجة إلى معجزة إلهيّة أو قنبلة نووية كالتي سقطت على هيروشيما ونجازاكي في الحرب العالمية الثانية !».

أعجبها تعليقه على الخبر، واستخدامه للغة العربية دون العامية، هي لا تذكر «محمد الدرّة» ولا تعلم ماهيّة «هيروشيما ونجازاكي»، لكن صوته كان عميقاً واثقاً، صوت مثقّف، يبدو منه أنّه صاحب فكر ورسالة.

انتشلها من أفكارها بسؤاله لها: «حضرتك منين من سوريا؟» أجابته من واقع أوراقها الثبوتيّة: «من حلب».استطرد ممازحاً: «أحسن ناس برضو» ثم ضحكا..شعرت وهي تجلس إلى جواره بإحساس تحتاجه، شعرت بالراحة. هي مرتاحة جداً بوجوده إلى جوارها، مطمئنّة ولا تدري لماذا، وكأنّه اجتذب روحها بمغناطيس، وحدّثتها نفسها بأنها لا تريد

لقصّتهما معاً أن تنتهي بانتهاء رحلة القطار ووصوله إلى القاهرة، هي تريده أيضاً أن يصحبها في رحلة حياتها المجهولة هناك. رآها شاردة.. تنظر له بعينين بهما من الخوف والقلق على قدر ما بهما من جمال وسحر، هو أيضاً لم يرغب في أن يتوقف حديثهما عند هذا الحد، فاستمر فيه قائلا: «لسّه طريقنا طويل لحد ما نوصل القاهرة، إيه رأيك لو تحكيلي حكاية العيون الحلوين دول؟ لأني بصراحة نفسي أعرفك أكتر».

حكت له ما تعرفه من قصتها، عن إقامتها في أسوان وعن ابن خالها الذي لم يسأل عنها، وأنها لا تذكر من حياتها الماضية شيئاً أو شخصاً، حتى الشخص الذي كتب لها تلك الورقة الصفراء الفاقع لونها لا تذكره !

كان يسمعها باهتمام بالغ، ملكته ببراءتها وقلّة حيلتها، هو لن يتخلى عنها، هكذا قَّرر في نفسه.

سألها بعد انتهائها من كلامها: «ممكن نكون أصدقاء؟ ونفضل على اتصال ببعض بعد ما نوصل القاهرة؟»

أشرق وجهها بنور كلماته، أومأت برأسها موافقة، طلب منها رقم هاتفها المحمول لكنها لا تملك واحداً حتى الآن فأعطته رقم «دينا»، لم يعطها رقمه لأنه هو من يريد أن يصل إليها، يريد أن يضمن وجوده إلى جوارها، قد تخجل من أن تتصل به بعد أن يصلا إلى القاهرة، خاصةً وأنه لاحظ أنها شديدة الخجل بحكم ظروفها، كان الله في عونها. كما أخذ منها البيانات الموجودة على بطاقة مقر الجالية السورية بالقاهرة لِيَسْهُل عليه أن يصل إليها.

أصابها الإحباط لأنه لم يعطها رقم هاتفه أو عنوانه، لكن.. قالت عيناه الكثير، رأت في عسلهما حلاوة أيام قادمة، ذابت في نظراته لها، كم تمنّت أن تُلقي برأسها الثقيل على كتفه ليأخذها بين ذراعيه

وتنام كالأطفال، ثَقُل رأسها أكثر.. وراحت في نوم عميق.

استيقظت متوسّدة ذراعه فانتفضت وأفزعته، كان نائماً هو الآخر، لكنه هدّأ من روعها قائلا: «متخافيش يا حبيبتي.. متخافيش».

حبيبتي؟! هل ما سمعته صحيح؟ هل كان يقصدها هي فعلاً أم أنه استبدلها بأخرى في نومه؟ ما هذه الحميمية التي يشعران بها نحو بعضهما؟! هو اخترقها بالفعل، اخترقها عاطفياً، وبعدما سمعت منه كلمة السر..كلمة السحر..«حبيبتي» التي خرجت من بين شفتيه بمنتهى التلقائية والعفوية، أوحت إليها أنه يبادلها تلك المشاعر الجارفة غير المبررة بمثلها.



وصـل قطارهمـا محطّتـه الأخـيرة، القاهـرة. حـان وقـت وداعهـما المؤقـت عـلى وعـده بلقـاء قريـب، لكنـه لم يتركهـا إلا بعـد أن تأكـد مـن اتصالهـا ب «دينـا» التـي أكـدّت أنهـا سـتأتي بعـد عشر دقائـق لاصطحابهـا، قـرَّر أن ينسـحب احترامـاً لخصوصيّـة لحظـة أول لقـاء بينهـما، ولم يشـأ أن يظهـر بمظهـر الغريـب الفضـولي المتطفّـل.

ودّعهـا بضـم يدهـا بـين راحتيـه وقبـل أن ينـصرف قـال لهـا: «عـلى فكـرة ..أنـا اسـمي آدم» . اعتلـت وجههـا دهشـة سـببها هـي لا هـو، اندهشـت مـن انجذابهـا لـه كالمسـحورة للدرجـة التـي جعلتهـا تنسـى أن تسـأله عـن اسـمه، صاحـت بعـد أن أدار لهـا ظهـره ومـضى في طريقـه: «وأنـا مهـا» . التفـت وابتسـم مواصـلاً سـيره ووجهـه لهـا قائـلاً بصـوت واثـق ومسـموع: «عـارف.. صفـراء فاقـع لونهـا» !

غمـز لهـا غمـزة رسـمت عـلى وجههـا ابتسـامة زادتـه حـلاوة، لـوّح لهـا بيديـه وانـصرف..

آدم..هو آدم بالفعل، معنى الرجولة في شخص، الأنثى في حضرته لا ترى إلّاه.. ولا تريد سواه.

انتشلتها «دينا» من بحر رومانسيّتها عندما وقفت أمامها وصاحت بصوت كله فرحة: «مهاااااا..الحمد لله على سلامتك حبيبتي..كتير اشتقتلّك عن جد».

ضمّتها ضمّة أعطتها فيها كل ما كانت تحتاجه بشدّة من مشاعر إيجابية..ما هذه الراحة وما هذا الأمان؟! هي بالتأكيد أختها، حتى أنها تشبهها إلى حد كبير في الشكل والهيئة. سألتها «مها» ببراءة: «نحنا أخوات ما هيك؟»

أجابتها «دينا» بحنان: «وأكتر حبيبتي..وأكتر!».

***

خرجتا من «محطّة مصر»، وقد حرصت «مها» على الإمساك بيد «دينا» ولم تفلتها، كأنها أمّها، أخذت تنظر يميناً ويساراً وهي فاغرة فاها من شدة

الدهشة، وجال بخاطرها سيل من التأملات.. هل هذه هي محطة مصر؟! هل هي نفس المحطة التي ظهرت في أفلام الأبيض والأسود التي شاهدتها وقت إقامتها في المشفى؟! وما أبشع تلك الأغاني الهابطة المتدنّية التي يسمعها السائقون والباعة الجائلون والمتسوّلون والمتسكّعون ! أهؤلاء هم من سمع آباؤهم وأجدادهم أغاني أم كلثوم وعبد الحليم وطربوا لألحان عبد الوهاب والسنباطي؟!

حدّثتها نفسها بصوت يملؤه الحسرة: «ولم العجب؟! فهي من بلاد الشام، فينيقيا، أجدادها هم أوّل من ركبوا البحر قديماً وكان فضلهم على سائر حضارات العالم عظيماً بركوبهم البحر للتجارة ونشر الأديان. و الآن..صار أحفادهم لاجئين يموتون غرقاً وهم يقامرون بحياتهم ليربحوا وطناً، ويتاجر بهم وبقضيّتهم العالم أجمع !

وتذكّرت جزءاً من تعليق آدم على أحوال الأمة العربية، وتردد صوته الدافئ في أذنيها ليطغى على كل ما حولها من ابتذال:»كلنا نحن العرب..ما نحن إلا (جلمود صخر حطّنا السيل من علٍ) لقاع التخلّف والجهل، وإن أردنا أن نستعيد حضارتنا وسيادتنا وعزّتنا وأصالتنا، ما علينا إلا أن ننتظر اختراعاً يابانياً أو ألمانياً لآلة تسافر عبر الزمن لنعود بها للماضي، فنحن الأمّة الوحيدة التي كلّما عادت للوراء..كلّما تقدّمت أكثر !

***

اختارت الاستلقاء على الأريكة، ألقت عليها جسدها المُتعَب وأسندت رأسها الفارغ من ذكرياته على إحدى وسائدها الوثيرة. وبعد أن أعدّت لها «دينا» مشروبا دافئاً لتحتسيه، شرعت في قصّ ما تعرفه على مسامع تلك الحائرة، ودار بينهما حوار طويل..

- «بعرف إنّو بدّك تعرفي كل شي، شوفي حبيبتي، بعرفك منيح من وقت ما كنّا بسوريا، كنّا جيران بنفس البناية.

- مزوجه أنا؟ عندي ولاد؟

- كنتي مزوجه بس ما عندك ولاد، زوجك مفقود من الوقت يلّي بلّشت فيه الحرب ع حلب، كتير فتّشنا وبلّغنا الشرطه بس ما وصلنا لشي، ومو بس هو ..كتير متلو مفقودين وأهلن ما بيعرفوا وينن!

- شو كان اسمه؟

- «وليد»..أكبر منك بعشرين سنه، واتزوّجتيه لأن أهلك هيك كان بدّن، وكنتوا كتير بتتخانقوا وبتصرخوا وكنتي كتير تعبانه معو، ما وافق إنك تبلشي دراساتك العليا، ما كنتي سعيده معو بنوب !

- وينن أهلي؟

- بسوريا.. هربنا سوا وخليناهن هونيك !»

هكذا إذن..هي هاربة من جحيم الحرب، وجحيم أهلها الذين باعوها لمن يكبرها سناً وحكموا عليها بالتعاسة الأبديّة، طبيبة مع إيقاف التنفيذ، ثارت على كل شيئ وعلى كل تقليد بالٍ، ضربت بهم جميعاً عرض الحائط ثم داست عليهم بقدميها وهي تهرب من لعنتهم..لعنة الله عليهم جميعاً !

هكذا حدّثتها نفسها أثناء سماعها لحكايات «دينا» عن أهلها وعلاقتهم بها.

واصلت «دينا» قصّ ما حدث على مسامع «مها»، حكت لها كيف كانت رحلتهم من سوريا إلى القاهرة التي بدأت من مطار دمشق لمطار الخرطوم، وكانت السودان محطّة انتقال وسيطة، لأن السودان هي الدولة الوحيدة التي لا زالت تعطي إذناً

للسوريين بدخول أراضيها بدون تأشيرة، وكيف توجّهوا إلى «بور سودان»، وهي منطقة حدوديّة مع مصر، ومنها ركبوا سيارات ذات صندوق خلفي مكشوف (بيك آب)، وهدفهم الوصول لمدينة أسوان المصرية، وكان عليهم اجتياز المناطق الصحراوية بسرعة، وذلك لأن المسئول عن تهريب هذه الأرواح المقهورة يخشى الشرطة، وقطّاع الطرق المتمركزين على طريق التهريب، وتجّار الأعضاء. وكانت خطورة الرحلة في السرعة الفائقة للسيارة التي حشر فيها الأطفال والنساء والرجال، فبينما كان السائق يسير بهم بأقصى سرعة ممكنة في المدقّات بين الجبال، سقطت «مها» من صندوق السيارة وارتطم رأسها بالأرض.. سقطت مغشياً عليها.

بعد رحلة عناء ووعثاء استمرّت ثلاثة أيام من «بورسودان» إلى «أسوان» وصلوا أخيراً هدفهم المنشود، وذهب الشخص المسئول عن تهريب هذه

المجموعة إلى مصر ب «مها» إلى المشفى فور وصولهم «أسوان»، وبطبيعة الحال قدّم أوراقاً ثبوتيّة مزورة تم إعدادها سلفاً تحسّباً لمثل هذه الطوارئ، وهو عضو في «مافيا» تزوير تأشيرات الإقامة للسوريين في مصر، يعاونه ضابط ومحامي وبعض موظفي مصلحة الجوازات «المصريين» ! ودور «خالد» في هذا التشكيل العصابي هو أن يجلب المواطنين السوريين من «سوريا» للحصول على إقامات مزوّرة مقابل آلاف الجنيهات بمساعدة موظفين حكوميين!

هو ليس «أنس» إذن .. قالتها في نفسها وهي تحاول استيعاب المعلومات التي قصّتها «دينا» على مسامعها، واستطردت تحدّث عقلها علّه يساعدها: وليس ابن خالي كما ادّعى، و لم أنزلق في الحمّام.. ترى ماذا تخبّئ لي الأيام؟.. من أين جئنا وإلى أين المصير يا دينا؟!

***

دينا..

رمز الأنوثة والعذوبة، تعرف كيف تسحر من أمامها بدلالها ورقّتها، تكفيك نظرة واحدة من عينيها الخضراوين لتخدّرك إلى الأبد وتقع فريسة في شباكها بلا أدنى مقاومة، ربما لأن أمّها لبنانية الأصل، ومعروف عن نساء لبنان أنهن أيقونات الأنوثة والدلال ليس في العالم العربي وفقط، بل ربما في العالم كله..

شعرها ذهبي حريري الملمس، منسدل بانسيابيّة حتى أسفل ظهرها، هي لا تحتاج مشطاً ولا تملك إلا واحداً لا تذكر مكانه، تصفف شعرها بيديها من فرط نعومته، لا تستقر فيه ربطة الشعر، حاولت أن تربطه غير مرة، لكن ربطته تنزلق تدريجياً حتى تسقط منفلتة من شعرها دون أن تشعر بها، مشدودة الجسد ملفوفة الصدر، كل من يراها يعتقد أنها في بداية العشرينات، لكن الحقيقة هي أنها بدأت

ثلاثيناتها منذ عامين تقريباً، كما أن بها من الجمال الداخلي ونقاء الروح ما يساوي جمالها الظاهري، فسبحان من خلق وأبدع !

منذ أن كانت في «سوريا» قبل اندلاع الحرب، كانت هواية «دينا» المفضلة هي تكوين العلاقات الاجتماعية والشخصية والفكرية عبر شبكات التواصل الاجتماعي، تعرّفت على شباب وبنات، رجال ونساء، وكان لها من لباقة الحديث والذكاء الاجتماعي والمعرفي ما أتاح لها فرصة التعرف على الكثيرين، واستطاعت بجمالها وعذوبتها أن تتعرف على أحد أثرياء مصر، «محسن» .. رجل شارف على انتهاء الأربعينيات لكنه يبدو أصغر، أسمر، عريض البنية، تبدو عليه سمات «الفحولة» واضحة، متزوج من مصرية، «أم العيال» كما يقول كلما تحدّث عنها، عنده منها ولد وبنت، انجذب ل «دينا» بحكم أنوثتها الجامحة وشهوانيّته المقنّعة بقناع برود «أم العيال».

كانـت علاقتهـما إلكترونيـة عـلى مـدار شـهور عديـدة، لم يراهـا ولم تـراه إلا بالكامـيرا، لكنـه رأى منهـا ورأت منه مـا جعلهـما كالمجاذيـب، أعطاهـا مـن الاهتـمام والمشـاعر وكلـمات الحـب وإيحـاءات الجنـس مـا يرضيهـا كأنثى، لم تهتـم بأنـه متـزوج بأخـرى، كانـت تـرى أن للرجـل الحـق في أن يعـدّد خاصـة وإن كانـت زوجتـه لا ترضيـه ولا تـروي رجولتـه بأنوثتهـا، هـي واثقـة جـداً مـن نفسـها وجمالهـا، تعلـم أنـه سيسـتغني بهـا وبعشـقها عـن نسـاء العالمـين!

اتّفقـا عـلى أن يتزوجـا بمجـرد وصـول «دينـا» إلى مـصر زواجـاً رسـمياً بـدون علـم «أم العيـال» بطبيعـة الحـال، اشـترى خاتـم الـزواج المـاسي ل «دينـا» قبـل أن تـأتي ليضعـه في إصبعهـا فـور أن يراهـا، كـما اشـترى لهـا بيتـاً في حـي «مـصر الجديـدة» بنـاءً عـلى طلبهـا، ووعدهـا بـأن يكـون ملكهـا فـور وصولهـا، كـما وعدهـا بـأن تكـون ملكتـه المتوّجـة، وعدهـا أن يشـبعها عشـقاً،

وبأنها لن تشعر أنها زوجة ثانية، هي من تملك قلبه، هي من سيقضي وقته بين ذراعيها، أو بالأصح..بين رجليها!

اشترطت «دينا» أن يكون زواجهما رسمياً حتى تستطيع أن تحصل على الإقامة في مصر بشكل قانوني سليم، وإن استطاعت ذلك، ربما أقنعت «محسن» بعد فترة أن ينتقلا للعيش في إحدى الدول الأوروبية كفرنسا مثلا، فرنسا تشبهها كثيرا في الرقيّ والأناقة، كما أنها تذيب بأنوثتها من يسمعها تتحدث الفرنسية، كانت همساتها ل «محسن» باللغة الفرنسية بصوتها الناعم إحدى وسائل إثارته المضمونة التي لم تستغرق وقتاً طويلاً لإقناعه بأنه يشتهيها..يتمنّاها.. ولن يفلتها أبدا!

كل محاولات خروج «دينا» من سوريا إلى مصر بشكل شرعي باءت بالفشل، لم تستطع أن تحصل على أي تأشيرة دخول، لم يكن أمامها إلا أن تدخل

مصر عن طريق حدود «السودان» مع عصابة التهريب التي منحتها تأشيرة دخول مزوّرة وإقامة مزوّرة أيضا، كانت واثقة من أن وضعها القانوني سيتبدّل بمجرد وصولها ل «مصر» بسبب علاقات «محسن» القوية برجال السلطة والنفوذ، وبسبب وعده لها بأنه لن يتركها!

***

تمر الأيام وإحساس «مها» بالغربة يزداد، لم تستهويها صناعة الحلويات السورية ولا الأشغال اليدوية رغم مواظبتها على حضور الدورات التدريبية التي تنظمها بعض المتطوعات بشكل دوري لمساعدة الوافدات حديثاً على فتح باب رزق جديد لهن، ومساعدتهن على مواجهة تحديات الغربة في بلد «شقيق».

ساعدتها «دينا» عن طريق «محسن» على أن تعمل نادلة في مقهى له طابع غربي «كافيه».. هي

من عُشَّاق القهوة..هي القهوة..هي العسل المر.. هي التي زادها الحزن جمالًا وزادتها الغربة رغبة في الحياة، لم يمنعها الشعور بالوحدة من الاختلاط بزملاء وزميلات العمل وتكوين علاقات سطحية طيبة معهم، لم يمنعها انكسارها من الابتسام لدرجة أن أول ما توصف به

-إن أراد أحد المترددين على الكافيه وصفها- (البنت اللي ابتسامتها حلوة) .. رغم كل الظروف .. ابتسامتها حلوة!

ورغم انشغالها بمرّ الحياة وحلوها، لم تنس آدم، لم تنقصها الشجاعة الأدبية لتعترف لنفسها بأنها كانت ساذجة و «عبيطة» حين اعتقدت أنه سيعاود الاتصال بها، يبدو أنها لم تعني له أكثر من مجرد تسلية في رحلة قطار طويلة، ولأنها لا تملك من ماضيها إلا القليل، كانت تذكره كل يوم، تذكر تفاصيله، ملامحه التي انطبعت في عقلها، تذكر صوته الذي عبر

أذنيها فوراً إلى قلبها واستقر فيه ولم يخرج من يومها إلى الآن، كانت تبحث عنه في كل من حولها، كانت تبحث عن كل ما اجتمع فيه وتفرّق في كل الرجال، لم تستجب للمغازلات والإطراءات والمجاملات، لم تعجب بأحد.. هو فقط من تريد وتشتهي.. «آدم».

ورغم الإحباط وانكسار القلب الذي تسبب لها فيه .. لم تيأس من التردد بانتظام على مركز «الجبالي» الطبي، ذلك المركز الذي رشّحه لها طبيبها المعالج في أسوان، هي تحاول أن تتذكر، أن تعرف ما حدث معها، تنفذ تعليمات «د.أكرم الجبالي» حرفياً، لعلّها تمسك بتلابيب ماضيها قريباً!

***

وكأنّ السماء سمعت نحيب قلبها فاستجابت وأرسلت «آدم» لأرضها، أرسلته ليهب لحياتها حياة..

ذات صباح خريفي رائع، وعلى إحدى طاولات الكافيه المنزوية، جلس في هدوء، يرقبها وهي تعمل كنحلة دؤوبة، أشار لها بطرف إصبعه فأتت تأخذ طلبه، سألته وهي تنظر في دفترها الصغير ممسكة بالقلم مبتسمة ابتسامة آلية سائلة بلهجة مصرية جميلة مثلها:

- تحب تطلب إيه يا فندم؟

- أحب أطلبك انتي!

رفعت إليه عيناها، طارت ابتسامتها من على شفتيها إلى كل ما فيها، إلى عينيها..قلبها..أفكارها وروحها.. كل ما فيها ابتسم!

- إنتَ؟

- أيوه ! آسف إني إتأخرت عليكي طول المدة دي

- بس كان بدّي أطمّن عليك !

- أنا بخير طول ما انتي بخير..

- ما قالت لي دينا إنك كلّمتا !

- أنا طلبت منها متقولكيش علشان تبقى مفاجأة

- ليه تركتني طول ها الوقت ما حاكيتني؟

- كنت بحاول أهرب .. لأن إحساسي بيكي كان أكبر مني، حبيت أتأكد من مشاعري !

- واتأكدت؟!

- مشاعري بقت يقين، أوعدك إني مش ههرب تاني، أرجوكي متزعليش إني بعدت الفترة اللي فاتت، سامحيني.

- فرحتي برجوعك إلي هلّا أكبر من أيّ زعل، مو زعلانه، بعرف إنو ظروفي منّا سهله، شو ذنبك إنت تربط حياتك بإنسانة ما عندا حياة أصلا؟!

- إسمعي بقى.. إن كان ربنا أراد إنك تفقدي ذاكرتك غصب عنك، فأنا هفقد ذاكرتي بمزاجي معاكي، مش هفتكر من دنيتي غيرك، إوعي تخافي ..مش هسيبك أبداً، دايما هكون جنبك ومعاكي.. الإنسانة اللي تقدّر حبيبها حتى بعد ما غلط واتلخبط وهرب، وفرحتها برجوعه تكون أكبر من زعلها..واللي تلوم نفسها كمان في موقف زي اللي حصل ده، تبقى هي الأنثى الوحيدة في العالم اللي مفيش غيرها في عيوني..هي الوحيدة اللي تستاهل قلبي وحبي، وميرضينيش ولا يكفيني غيرها..

مهما كانت حياتك قبلي إنتي ملكيش ذنب فيها، وملكيش ذنب كمان إنك نسيتيها، أنا قررت أكمّل باقي عمري معاكي، بين إيديكي، حافظي عليا، إوعي تسيبيني، وأوعدك يا حياة عمري..عمري ما هسيبك !

انصرفت من عملها يومها معه، لم يتركها حتى انتهت، رافقها سيراً على الأقدام حتى وصلا

لبيتها، وكانت قد استأجرت سكناً مجاوراً ل «دينا»، يفصلهما شارع واحد فقط، وكانت تبيت عندها في حالة بيات «الفحل» كما تسميه عند «أم العيال» كما يسميها، يومها، كان ذلك ال «محسن» عند صديقتها، فعادت إلى بيتها.

لم تَدعُهُ لاحتساء القهوة معها، فقد شرب ما يكفيه ويزيد أثناء انتظاره لها، ولاحظ ارتباكها فلم يشأ أن يحرجها أو يفرض نفسه عليها، ودّعها بقبلة رقيقة طبعها في كف يدها بعد أن سلّم عليها بحرارة أذابت برد غربته عنها، عرف منها مواعيد عملها في اليوم التالي ليرتّب ظروفه على أن يصطحبها إلى هناك سيراً على الأقدام صباحاً، وفي نيّته.. كل صباح.. ما أجمل هدايا القدر بعد شوق وانتظار!

***

توالت صباحاتهما معاً، يمر عليها قبل موعد العمل بساعتين، يشربان قهوتهما سائرَين، يتقاسمان

تدخين سيجارة واحدة، لم يدخّنا أبدا سيجارتين، فلتلك السيجارة طعم أشهى ونَفَس أزكى، واحتفلت الطبيعة بهما، أقامت لهما عرساً خريفياً راقياً بدأ بالأمطار الخفيفة التي غسلت روحهما من المخاوف والظنون، وأهدتهما نسمات الهواء الباردة المحمّلة بعبير الألفة واللهفة..

كانا يضحكان، يتكلّمان في موضوعات عامة، عن ذوقهما في الأغاني والأفلام، عن حبّهما للطبيعة والألوان، كان تقاربهما مذهلاً، يصل إلى حد التطابق في بعض الأمور، والبعض الآخر كان مستحدثا لتحمل روح كل منهما بصمة الآخر كوشم حب أبدي..

هو علّمها كيف تتذوق أغنيات كاظم الساهر وألحان عمار الشريعي، وهي جعلته يتذوق حلاوة أغنيات نجاة ووردة الجزائرية التي كان يسمعها منذ زمن، ولم يشعر بكلماتها وموسيقاها بهذا الشكل

قبل حبّها، وبصمتها المميزة جدا كانت أنها علمته كيف يسمع فيروز، كان لصوت فيروز سحرا خاصا يأسرها ولا تعلم لماذا، ربما كان لذلك علاقة بماضيها الغائب عنها، كانت تشعر بالخدر كلما سمعت ذلك الصوت الملائكي الحالم الذي يعزلها ويعزله معها عن العالم !

***

لم ترحّب «دينا» بتلك العلاقة أبداً، كلما حاولت «مها» أن تتكلّم عن «آدم» أو أن تحكي موقفاً معه قاطعتها، وتبدأ في إعطائها درساً مملا تكرره كل مرة، تحاول أن تقنعها بأنه غير مناسب لها، فهو لم يأخذ علاقتهما مأخذ الجد ولن يتزوجها! ولم يحكي لها شيئاً عن حياته الخاصة، أي علاقة هذه؟! وتذكّرها كل مرة أنها غريبة، ويجب أن تبحث عن الأمان مثلما تبحث عن الحب، حتى وإن أصبحت مجرّد أداة متعة لرجل ثري متزوج بغيرها، لا ضير، طالما

أنها ستحصل على إقامتها بشكل شرعي وستلبّي كل احتياجاتها المادية والجنسية !

وذات يوم..

دبّرت «دينا» لقاءً بين «مها» وأحد أصدقاء «محسن» - بحضوره طبعا - والذي كان يريدها زوجة ثانية، لبّت «مها» دعوة «دينا» للسهر في باخرة نيليّة تابعة لأحد الفنادق الشهيرة بعد ضغط و إلحاح، ولم تعرف أنها نصبت لها ذلك الفخ اللعين.. تألّقت في فستان سهرتها الذهبي بشعرها الأصفر المبعثر وزينة هادئة حالمة مثلها، وبمجرد دخولهما إلى الباخرة تحرّكت في النيل، أمسكتها «دينا» كطفلة مشاغبة كي لا تهرب، وما أن رأت «مها» «محسن» ومن معه حتى رجعت خطوتين للوراء، رمقتها بنظرة حادة قائلة لها بعصبيّة: «ما راح اقعد، هلّا بدّي أمشي !»

ردّت عليها «دينا» بابتسامة ساخرة متحدّية: «أوكي حبيبتي، فيكي بس تنطّي بالنيل، ما فيكي

تروحـي بغـير مطـرح !». ومـا أن رأى «محسـن» «دينـا» و «مهـا» آتيتـين حتـى انتفـض واقفـا، وجـذب «دينـا» مـن خصرهـا إليـه، قبّلهـا قبلـة رخيصـة تنضـح شـهوانيّة، وتعمّـد أن يضـع يـده عـلى مؤخرتهـا لـتراه «مهـا» وتجـن، وتظاهـر بأنّـه يتـصرف بعفويّـة وبـراءة !

هـو يعلـم أن «مهـا» لا تطيقـه، وهـو أيضـاً يبادلهـا مشـاعرها لكنّـه يراهـا مثـيرة ! ولم يمنعـه خيالـه المريـض مـن تخيّلهـا مـع «دينـا» في سريـره تتنافسـان في إرضائـه وإمتاعـه !

***

لم يكـن «محسـن» بهـذه الوضاعـة وهـذا التحـرر إلا مـع «دينـا» وفي مجتمعهـا، أمـا في حياتـه الأخـرى فهـو رجـل ملتـزم، محـترم، حريـص عـلى المظاهر من الشعائر الدينيـة والطقـوس المجتمعيّـة، مثـال للـزوج المحـب لزوجتـه وأهلهـا، تـرك طـب الأسـنان باختيـاره ليصبـح رجـل أعـمال، يتاجـر في كل شـيئ وبـكل شـيئ حتـى

بالمشاعر والمبادئ ، يمنع زوجته من وضع مساحيق التجميل أو التعطّر إن غادرت المنزل، غير مسموح لها أن ترفع صوتها في حضرة الغرباء «فصوتها عورة وهو رجل محافظ»، هي مجرّد أداة للإنجاب، غير مسموح لها أن تُبدي رأيها في أي موضوع يخص العلاقة الحميمة بينهما، لأن ذلك يندرج تحت مسمى «قلّة الحياء»، للعلاقة بينهما شكل روتيني، ممل، ثابت، آلي، لا إشباع عاطفي فيه، لا لها ولا له، فهي مجرد وعاء وهو آله، يثبت حضوره ووجوده وفقط !

أما عن تلك البائسة.. «أم العيال» حالياً و «هند أكرم الجبالي» سابقاً، كانت قبل زواجها فتاة جادة دراسياً، مرحة، راقية، من أسرة مرموقة اجتماعياً، ميسورة الحال مادياً، والدها الدكتور «أكرم الجبالي» أحد قامات المخ والأعصاب في الوطن العربي كله وليس في مصر فقط، له مركز طبي متخصص يحمل اسمه، وعلى الرغم من رقي مستواه العلمي والمادي

والاجتماعي، إلا أن «د.أكرم» احتفظ بأخلاق القرية الطيبة ومبادئها العقيمة أيضا، كان فيه كرم وخبث القرويين، يتباهى دوما بأنه «فلاح»، هو دائم الحنين للغيطان والسواقي ورائحة الأرض، وكان كمعظم الفلاحين يفضّل الذكور على الإناث، لذلك لم تكن علاقته قويّة بابنته، كل كلامه لها انتقادات، كان يريدها أن تصبح طبيبة مثله، لكنّها خيّبت أمله ولم تحصل على المجموع المطلوب في الثانوية العامة لتلتحق ب «علية القوم» فدخلت كلية الآداب! .

وعلى الرغم من كونها الأولى على دفعتها كل عام، إلا أن ذلك لم يشفع لها لتنال الرضا السامي، لم يعترف «الفلاح» بتفوق ابنته وإنجازها بل على العكس، عندما علم ببقائها على قمة دفعتها في السنة الثالثة لها بالكلية قال متهكّما: «إيه؟ هي دفعتك مفيهاش غير اتنين ولا إيه؟! كل مرة انتي الأولى؟!».

كان يقسو عليها نفسياً، زرع فيها شعور دائم بالدونيّة والانحطاط، لم تعرف أبداً قيمتها الحقيقية في صغرها وشبابها، لم تعرف أنها إنسانة جميلة، راقية، رائعة إلا في وقت متأخر جداً.. بعد فوات الأوان !

ولأنه جعل منها مسخ نفسي مشوّه، بحثت عن زوج لها بمعاييره، كانت تريد أن تشعر برضاه عنها وبافتخاره بها بأي ثمن، حتى وإن ألقت بنفسها في تهلكة رجل لا تحبه، وعندما ألقى القدر أخو صديقتها المقربة في طريقها، وكل مقوماته أنه طبيب أسنان، وشعرت بأن والدها يرحب به كزوج لها وافقت على الفور، تخلّت عن حلمها في أن تصبح أستاذة جامعيّة، فهي خريجة كلية الآداب على أي حال، مجرد شهادة لا قيمة لها كما يراها والدها من برجه العاجي، ولن تضيف للمجتمع شيئاً إن حاضرت طلاباً في الأدب والشعر وساهمت في تخريج المزيد من العاطلين والمعاقين عاطفياً للمجتمع !

وبعد أن تمّت هذه الزيجة بنجاح، شعر «الفلاح» بالسعادة لأنها كانت عبئاً نفسياً عليه وانتقل حملها لغيره، لا يعنيه إن كانت سعيدة أو تعيسة، لم يسألها يوماً عن حالها، حتى وإن شعر بأنها تمر بأزمة ما أو بمشكلة، كان يتجاهلها تماماً، فخلافاتها الزوجية أمر غير قابل للنقاش، لا مجال للخلافات والاختلافات والمهاترات التي لا جدوى منها، فوقته أثمن بكثير من تلك التفاهات النسائية!

وعلى الرغم من ذلك، كانت «هند» سعيدة بحياتها، قانعة راضية، موصولة بربّها، تسأله آناء الليل وأطراف النهار أن يبارك لها في زوجها ويرضيه بها ويرضيها به، وأن يهدي طفليها ويحفظهم بحفظه، كانت تهتم بشئون البيت بنفسها، تحب أن تضيف لمسة حنانها وحبها لأسرتها في كل شيء، تطهو لهم بالحب، تقوم بسائر الأعمال المنزلية بمساعدة خارجية قليلة جداً لا تكاد تذكر، لتنشر

سحر العطاء والبذل في كل ركن من أركان بيتها الهادئ، كان بيتها هو محور حياتها، وطفلاها هما كل حياتها، تذاكر لهما بنفسها، كل ما تقرؤه منحصر في دروسهما قبل أن تشرحها لهما، أو كتب في فن تربية الأبناء، وقد تمل أحياناً وتقرأ كتبا في سر السعادة الزوجية أو فن الطبخ !

كانت فسحتها الوحيدة تقريباً هي اصطحاب طفليها لتدريبات السباحة والتنس، صديقاتها المقرّبات لهن أطفال في عمر أبنائها وحديثهن كله يتمحور حولهم، أما صديقاتها اللاتي لم تتزوجن بعد، أو لم تنجبن، فعلاقتها بهنّ سطحيّة بحكم مشاغلها الجسيمة، حتى وإن كانوا قبل ذلك من أقرب المقربين !

لذلك يحبّها «محسن» ، يحبها لتفانيها وتضحياتها، يحب أن يأكل طبخها، يرتاح في البيت وهو يشعر بنَفَسها الحاني الهادئ، يشعر بكل ذلك ويشعرها

دوماً بأن ما تفعله هو العادي، أو ربما أقل من العادي في بعض الأحيان! يحترمها ويقدّرها ويقدّس الحياة الزوجيّة، ويبحث دوماً عن «أنثى»!

إلى أن عرف «دينا» التي عوّضته عن كل ما يفتقده في «هند»، عشق فيها تفانيها هي الأخرى، ولكن في إمتاعه وإشباع خيالاته الجنسيّة اللامحدودة، وكلّما أمرها بأمر ابتسمت، وعضّت على شفتيها، وهزّت كتفيها بدلال وتمسّحت فيه كالقطط، وبدأت في تنفيذ ما أمرها به، فأوامره أحلامها..وأحلامه أوامر!

وبعد أن تصبح أحلامه حقيقة، وبعد أن يشبع شهوته النفسيّة والجنسيّة، يعود ليلقي بنفسه بين ذراعي «أم العيال» كطفل مذنب يخاف افتضاح أمره!

***

لم توافق «مها» رغم كل محاولات «دينا» المستميتة على «عريس الغفلة» صديق «الفحل»، تقول لنفسها ولصديقتها دوماً أنها ليست سلعة ليشتريها من يدفع أكثر، وليست دمية ليتسلّى بها خرتيت لا يشبع، هي فراشة ذهبيّة محلّقة في سماء عالم الألوان بحرية وانطلاق، وآخر أمنياتها هي أن تسلّم نفسها وأجنحتها طواعية لصائد الفراشات !

هي طبعا تحب «دينا» جداً بحكم ما بينهما من صداقة قديمة لا تذكر منها إلا مشاعر إيجابية فقط، وصداقة مستمرة في «بلاد العجائب» هي بمثابة حائط صد لكل خسّة وانحطاط، صداقة أصيلة في دنيا المصالح بما فيها من أصدقاء السوء، إن جازت كلمة «أصدقاء» في هذا السياق. تشعر «مها» بخوف «دينا» الدائم عليها، فهي تريد أمنها وأمانها، صحيح أنها تختلف معها حول اعتناقها مبدأ (الغاية تبرر الوسيلة)، إلا أنها حتماً تحترم خوفها وتقدّر اهتمامها،

كانت ترافقها في معظم جلسات علاجها لتطمئن عليها، وكثيراً ما كانت تتحدّث مع الطبيب على انفراد، لم تهتم «مها» بما يدور من أحاديث وهمهمات بين «دينا» و «د.أكرم»، فليكن ما يكون !

وعلى الرغم من استمتاع «مها» بصحبة «دينا» في جلسات العلاج، إلا أنها كانت تفضّل رفقة آدم، كان يحس بها وباحتياجها قبل أن تتفوّه به، يعلم ما تفكّر فيه وما يختلج في صدرها من نظرة عينيها، حتى أنه يشعر بها عن بُعد وهو لا يراها، كلّما شعرت بغصّة أو قبضة، وجدته يتّصل بها ليسألها بحنوّ واهتمام: «مالك يا قلبي؟!»، وكأنّه معها..وكأنه يراها ويراقبها..وكأنه يخترقها..وكأنه هي !

هذا التقارب المذهل بينهما لا تفسير له ولا منطق فيه، بل هو المنطق الوحيد في دنيا اللامنطق، لذلك هي لا تطيق فراقه، ولا تفضّل على صحبته أحد، وتتلهّف على قضاء كل لحظاتها الممكنة معه، وتختلف

طبيعة علاقة «مها» و «آدم» عن علاقة «محسن» و «دينا»اختلافاً كليّا، حتى وإن ادّعت «دينا» أن «محسن» إنسان مميز، وأن بينهما رابطة قوية، وأشياء مشتركة، و... و... و... ، إلا أن رابطة «مها» ب «آدم» أعلى وأرقى، أسمى، لم يجمعهما الجنس..جمعهما التقاء روحيهما، وتأكّدت بمرور الوقت أنها روح واحدة في جسدين، كل شيئ بينهما مشترك، ذوقه هو ذوقها، يشتهي ما تشهيه، يرفض ما ترفضه، حتى أنه يتفق معها على أن «دينا» صديقة حقيقية، يحترمها جداً إكراماً «لابنة قلبه» ، رغم تأكده من أنها تكرهه ولا يزعجه ذلك، فستعلم «دينا» يوماً ما أن أكثر من يهوى صديقها.. هو.

وبسبب الفرق الشاسع في طبيعة العلاقة بين «مها» و «آدم» وبين «دينا» و «محسن» وأيضا بسبب الفروق الجوهرية بين «آدم» و «محسن»، كانت «دينا» في نظر «مها» عاهرة !

كان هذا هو لقبها الذي تمازحها به دوما وتناديها به كلما وجدت آثار علاقتها ب «الفحل» على رقبتها وكلّما لاحظت تورّم شفتيها، وكانت في قرارة نفسها تعني ذلك، فكما يقولون، إن أردت أن تعرف الحقيقة فتّش في المزاح !

من وجهة نظر «مها».. تعاشر صديقتها ذلك الفحل الثري مقابل إقامة شرعية وحفنة من النقود والهدايا في إطار علاقة زوجية ! وليس هذا ما يدعو للغرابة..الغريب أن «دينا» لم تحاول أن تبرر موقفها أبداً رغم استيائها من مزاح «مها»، إلا أنها لم تحرجها ولم تجرحها، كانت صديقة بحق.. ملائكيّة السمات كالقسمات !

***

يوم بارد من أيام فبراير..بدأته «مها» بسعادتها الصباحية.. «آدم» وقهوتها، وكانت على موعد مع «د.أكرم» في مركز الجبالي ذلك المساء، اتفق معها

«آدم» على اصطحابها لجلستها، وتمنّت سحراً مسائياً يضاهي روعة سعادتها الصباحية بقربه، لكن «دينا» أفسدت عليها أمنيتها باتصال هاتفي ترجوها فيه بصوت باكٍ ألا تتركها وحدها اليوم، يبدو أن ذلك الوغد ضايقها..حتماً هو السبب، حدّثتها نفسها بتلك الخاطرة وهي تسمع أنين روح صديقتها عبر الأثير، سألتها «مها» أن ترافقها إلى مركز «الجبالي»، ووعدتها بعدها بسهرة جميلة ستنسى فيها كل هم وضيق. واضطرّت «مها» إلى الاعتذار ل «آدم» لأن صديقتها تحتاجها جداً ولا تستطيع أن تتركها وحدها في هذه الحالة المزرية، أسماها «آدم» الملاك الحارس، هو يراها هكذا بالفعل، فعلى الرغم من احتياجها الشديد لمن يرعاها ويحتويها، هي نهر دافق من مشاعر العطاء والاحتواء، نهر لم تنضب منابعه ولم يتعكّر ماؤه.. ماؤه رقراق فرات، ورغم ذلك لا يرتوي مهما شرب منه، وكلما شرب منه أدمنه أكثر..

أبحر فيه بقارب حبّه لها ويسأل الله ألا تنتهي رحلته فيه، وأن يقضي عمره دائم الإبحار !

هو يعلم أنها لن تتخلّى عن «دينا» ولن تتركها لضعفها ولم يزعجه ذلك، احترمها أكثر وأكّد لها أنه يقدّر الموقف.

وبينما كانتا في انتظار دخول «مها» لجلسة العلاج، لم تنبس «دينا» ببنت شفه، جلست واجمة بدمعة حائرة تترقرق متأرجحة ما بين الانحدار أو البقاء بين الأهداب المنكسرة الذليلة بثبات مزعوم.

دخلت من الباب الرئيسي سيدة شابة، جميلة، صافية الملامح بحجابها الوردي وعباءتها التي تنمّ عن أناقة وبساطة، يحتضن كفّاها كفّي طفلان جميلان، يحمل الولد في يده الأخرى هديّة صغيرة ملفوفة بطريقة طفوليّة آسرة، وتحمل البنت وردة نديّة صبوحة مثلها، وهو يسير إلى جوارهم حاملاً

علبـة كبـيرة عليهـا اسـم أحـد محـلات الحلويـات الشـهيرة، ويمسـك في يـده الأخـرى ..مسـبحة.

هو.. نعم هو.. «محسن» !

ألهـذا تهـرّب منهـا اليـوم؟! وعندمـا ألحّـت عليـه أن يبيـت معهـا رفـض ونهرهـا واحتـدّ عليهـا؟! هـي لـه وقتـما يريـد وكيفـما يريـد وليـس لهـا عليـه حـق آخـر! أهكـذا يراهـا ؟! أهـذا مقدارهـا وقدرهـا؟! ..أطالـت إليـه النظـر بعينيهـا المنكسرتـين وقـد انفجـرت منهـما الدمـوع الحبيسـة التـي حفـرت بحـرارة حرقتهـا مجراهـا عـلى خدّيهـا اللّـذان شـهِدا قبلاتـه الحـارة ومواثيقـه الغليظـة لهـا بـأن تكـون ملكتـه ومالكتـه الأبديـة.

رحّبـت بهـما موظفـة الاسـتقبال بابتسـامة أعـرض مـن تلـك التـي تقابـل بهـا المترددين عـلى المركـز قائلـة بحـرارة: «أهـلا وسـهلا يـا أسـتاذة هنـد، أهـلا دكتـور محسـن، أهـلا يـا حبايبـي» ..مداعبـة طفليهـما وهـي

تمسح بحنان على رأسيهما سائلةً بصوت طفولي: «عايزين تشوفوا جدّو صح؟ .. الله، ولمين بقى الهدية الجميلة دي؟»

رد عليها شادي بحزم: «لجدّو طبعاً» !

قالت جوري بسرعة: «بس يا طنط لو سمحتي متقوليلهوش إننا عاملين له المفاجأة دي».. واستطردت -بلماضة - «أنا هقول لحضرتك الموضوع كله..النهاردة عيد ميلاد جدّو، وبابا كان عايز يعمل لجدّو عيد ميلاد كبير جدا في مكان بره، بس شادي أصر إننا نيجي لجدّو هنا زي ما جدّو عمل مفاجأة لشادي في عيد ميلاده وجالو المدرسة وعمل له عيد ميلاده في الفصل مع صحابه ومع ميس «رحاب» اللي هو بيحبّها..شادي بقى صمّم إنه ييجي لجدّو مدرسته ويعمل له عيد ميلاده مع صحابه والعيانين اللي بيتعالجوا عنده ..بس زي ما اتفقنا يا طنط ششششششش ده سر».

ضحك كل من في بهو الاستقبال، حتى «دينا» ضحكت، ضحكت ضحكات زادت من حرقة بكائها وغزارة دموعها الحارقة لخدّيها وكرامتها !

وبينما يضحك والدها التّقي حامل المسبحة الفخور بابنته اللمضة وقعت عيناه عليها..على «دينا».. ارتبك.. لكنه لم يكلف نفسه عناء النظر إليها مرة أخرى، وكأنها كمّ مهمل.. مجرد مريضة كسائر المرضى .. لكنه كان يحترق في قرارة نفسه لاعناً تلك الدنيا الصغيرة المستديرة! خرج من كان في حجرة الكشف ودقّ الطبيب الجرس معلنا عن استعداده لاستقبال الحالة التالية ..«مها»، لكنها لم تدخل منفردة، دخلت مع «دينا» الضاحكة الباكية، وفلذة كبده «هند» وزوجها الورع الذاكر لله «محسن» وصديقه المفضّل «شادي» وقرّة عينه «جوري». رمق ابنته بنظرة حادة استقرت في قلبها كخنجر طاعن مسموم، وقال لها باحتداد: «يعني ينفع

كـده؟! النـاس دي مـش جايـه تهـرّج ولا أنـا كمان..أنـا في الشـغل !».

فـردّ شـادي مدافعـاً عـن أمّـه بـبراءة: «مهـو يـا جـدّو حضرتك لما جيت لي المدرسة وعملت لي حفلة عيد ميلادي أنـا كنـت في الشـغل برضو..مـش حضرتـك دايـما بتقـول لي شـغلتك إنـك تذاكـر كويـس؟! يبقـى المدرسـة مـكان شـغلي، وأنـا يومهـا انبسـطت أوي، وأنـا صاحـب الفكـرة دي، لـو سـمحت متزعلـش مـن مامـا».

انفرجـت شـفتاه عـن ابتسـامة فخـر، وتبدّلـت ملامحـه القاسـية البغيضـة في لحظـات لتصبـح ملامـح جـد طيـب، لـه وجـه طفـوليّ مـشرق.

أمـا «دينا»..فقـد دقّـت في نفسـها طبـول الحـرب، هـي تعلـم أنـه متـزوّج، لكنهـا لم تكـن تعلـم أنهـا «هنـد أكـرم الجبـالي» تمتمـت كالمجذوبـة : أيعقـل أن تكـون هـذه الفراشـة الورديـة هـي نفسـها «أم العيـال»،

«الباردة» كما يصفها دائماً كلما تحدث عنها؟! يا له من كذّاب أشِر !

***

اعتذر «د.أكرم» ل «مها» عمّا حدث قبل بدء الجلسة، وأكّدت له أنها سعيدة بحضورها عيد ميلاده وأنها ليست مستاءة أبداً، في تلك الأثناء كانت «دينا» تنتظرها في حجرة الاستقبال..تراقب نظرات الناس لها، تحاول أن ترى في عيونهم انطباعهم عن بكائها الهستيري قبل قليل..لا أحد يهتم ! فهي في مركز طبي، ومن أهم سمات المترددين عليه العيون الدامعة الطامعة في كرم الله والشفاء !

أثناء خروج الأسرة «السعيدة» من باب المركز مرّ من أمامها، ألقى ورقة على رجلها كان قد دخل الحمّام خصيصاً ليكتبها لها..أمسكت بالورقة ورفعت عينيها إليه لتجدهم جميعاً أوشكوا على الخروج، أدار رأسه لها وغمز..

فتحت الورقة، وجدته قد كتب فيها: «إنتي الحب الحقيقي يا أحلى ست في الدنيا..لمّا أجيلك المرة الجاية هقطّعك لو كنتي لسه زعلانه» ! . الحب؟! الحقيقي؟! ماذا يعرف عن الحب؟ وماذا تعرف هي عن الحب؟ ما دام الحب هو الجنس فما المشكلة؟! لماذا بكت وانهارت لمجرّد أنها رأته مع أسرته السعيدة في هذا البرواز الاجتماعي العقيم من وجهة نظرها؟

بكت لأنها أنثى الإنسان وليست لبؤة..بكت لأنه لا يهتم بمشاعرها..بكت لأنها تعلم يقيناً أن الجنس مهم..لكن الاحتواء أهم.

هي أرهقته هذه المرّة، أرهقته وهو يحاول أن يبدي لها بعض التفهّم والاحتواء، حاول أن يتصل بها مرارا ويرسل لها رسائل نصّية على هاتفها المحمول، لكن (الهاتف المطلوب مغلق أو غير متاح..من فضلك حاول الاتصال في وقت لاحق) .. تبا لسخافة تلك الرسالة الصوتية !

أدرك أن عليه أن يبذل بعض الجهد، وعندما جمعهما القدر في هذه الصدفة العجيبة قرر أن يستغلّها - كما يستغل كل شيئ - لصالحه، عليه أن يراضيها ويتحدّى صعوبة الظرف، هي أنثى أولا وقبل كل شيئ.. ناقصة عقل وإن كانت كاملة الجسد في عينيه، قرر أن يستميل أنوثتها العاطفية ليسيطر عليها كما يسيطر على أنوثتها الجنسيّة ويشبعها، فقرر أن يجعل منها بطلة أحد أفلام الأبيض والأسود التي تعشقها، ولعب هو دور «عبد الحليم حافظ» وأرسل لها «جواب»، لكن شتّان الفرق ما بين «الثرى» و «الثّريّا» !



أمسكت «مها» بيد «دينا» هذه المرة..احتضنت كفّها بإحساس أم حانية تشفق على فلذة كبدها من قسوة الدنيا وغدرها، اصطحبتها إلى أحد المطاعم الفاخرة في مصر الجديدة، ذلك المطعم الذي تحبّه «دينا» كثيرا وليس ل «فحلها» معها ذكريات فيه، أحيانا يطلب توصيل الطعام منه للمنزل ويقضي وقته معها في قفصهما الذهبي ولم يأخذها يوماً إلى هناك.

تناولا عشاءً فاخراً على ضوء الشموع، حاولت «مها» أن تكون لطيفة قدر المستطاع، لم تناديها اليوم ب «عاهرة» كعادتها، ولم تكيل السباب في وجه «دينا» عن «محسن» لتقنعها بمدى «حيوانيته». كل ما كانت تحاول فعله هو أن تكون صديقة حقيقيّة، ألا تلعب دور القاضي، كل ما يهمها هو أن تدعم صديقتها نفسياً لتعبر بها من أزمتها إلى بر الأمان.. الأمان الحقيقي من منظور «مها» هو الراحة..

الحرية..السعادة الحقيقية..ليست تلك التي تعني خاتماً ماسياً في إصبع دمية جنسيّة حبيسة سجن ذهبي عَفِن مع ضبع وضيع !

احتفظت بأفكارها وانطباعاتها لنفسها وكتمت كل اللعنات والألفاظ النابية التي تحلم يوما بأن تكيلها ل «محسن» وتنتهي بصفعة وبصقة على وجهه.

ابتسمت «مها» بهدوء قائلة: «تركتيني لحالي اليوم مع د.أكرم، المرة الجاية ضلّك معي بليز..بدّي تكوني موجودة معي بلكي بتذكّر أيّ شي».

في خلال دقائق، أبحر بهما الحوار إلى شطآن أبعد وعوالم أرقى من محسن وحقارته، تحدثتا عن حياتهما في مصر خلال الشهور الماضية، تلك الحياة التي غيّرتهما كثيراً .. غيّرتهما ولم يستطيعا تحديد إن كان ذلك التغيير للأحسن أم للأسوأ..لكن الأكيد أنه تغيير جذري..تغيير في نظرتهما للناس وللأحداث وللأشياء.. تغيير في نظرتهما «للعروبة» ولمصطلح

«الوطـن العـربي».. تغيـير تعلـمان كيـف بدأ..وليـس لديهـما أدنـى فكـرة كيـف سـينتهي !

حكـت «دينـا» عـن بعـض ذكرياتهـما المشـتركة في سـوريا قبـل انـدلاع الحـرب، وسـمعتها الأخـرى بشـغف واهتـمام كطفلـة ذاهلـة تـروي لهـا معلّمتهـا الحبيبـة حكايـات أسـطورية، وتتخيـل نفسـها بطلـة هـذه الحكايـات، تتمنـى لـو تذكّـرت منهـا ولـو شـيئاً يسـيراً، لا لشـيئ إلا لتكـون لها ذكريـات ومـاضٍ تحكيـه لآدم، ليحكـي لهـا هـو الآخـر عـن ماضيـه !

وتحدّثـت «مهـا» عـن معاناتهـا المسـتمرة في محاولـة اسـتخراج إقامـة شرعيـة في مـصر، وحكـت عـن محـاولات «آدم» في ذلـك معهـا..

لم تتذمـر «دينـا» هـذه المـرة مـن حديـث «مهـا» عـن «آدم».. لم تسبّه ولم تعطهـا درسـاً في الأمـان الاجتماعـي والراحـة الضميريـة وضرورة البحـث عـن علاقـة

شرعية..لم تؤنّبها على سذاجتها وعدم استيعابها لأنه يتلاعب بها ولن يتزوجها..ولن.. ولن..

وكأن خيبة أملها وانكسارها بسبب ما حدث معها منذ قليل منعاها من ممارسة هوايتها المفضّلة في الظهور بمظهر «الخبيرة العاطفية» أو «قاضي الغرام» كفاتن حمامة في فيلم موعد غرام.. هذا هو السبب الأول..أما السبب الثاني هو رد الجميل.. نعم.. رد الجميل، امتنّت «دينا» من أعماق قلبها ل «مها» بسبب عدم تحليلها الناقد لما حدث اليوم من «محسن» والذي كان سيؤدي - إن حدث - لتجريحها فيه وسبابها المعتاد.

والحقيقة.. أن «مها» لم تفعل ذلك أيضا لسببين.. أولهما حرصها على أن تخرج «دينا» من تلك الحالة السيئة في أسرع وقت ممكن.. والسبب الأهم هو قناعة «مها» بأن «محسن» أحقر من أن يعكّر صفو

عشـائهما الفاخـر وأمسـيتهما الدافئـة في تلـك الليلـة الشـتوية السـاحرة.

رفضـت «مهـا» العـودة مـع «دينـا» إلى بيتهـا لأنهـا راهنتهـا عـلى عـودة «محسـن» لهـا ليقـضي معهـا ليلتـه - بعـد أن ينتهـي مـن تمثيـل دوره في مسرحيتـه التـي يلعـب فيهـا دور البطـل أمـام زوجتـه الأولى وعائلتهـا وطفليهـما - تلـك المسرحيـة المبتذلـة التـي يمثـل فيهـا دور الـزوج المحـترم والـذي لا يليـق بـه أبـداً.. يمثّلـه بابتـذال وعـدم إجـادة، وكأنّـه ممثل بالإكـراه فقـط لأنـه المنتـج، أو لأنـه «واسـطة» مـن طـرف المخـرج.

الواسطة..

تيقّنـت أنهـا كلمـة الـسر التـي تفتـح كل الأبـواب المغلقـة في عالمنـا العـربي ..أثبتـت لهـا المواقـف والأيـام أن تلـك الكلمـة هـي سر عذابهـا ومعاناتهـا، ولأنهـا لم تجـد واسـطة، لم تحصـل عـلى الإقامـة، فمـصر لهـا قوانينهـا وحسـاباتها وأناسـها الذيـن يجعلـون المسـتحيل

ممكنا.. وعلى الرغم من أن محسن من أولئك النفر من الناس، وعلى الرغم من أنه جزء أصيل من دوائرهم المغلقة وشبكة نفوذهم العنكبوتية، إلا أن الحقير رفض أن يساعدها بعد رفضها عرض الزواج من ذلك الفحل الآخر ..صديقه «نبيل»، كما أنها لم تتقبّل فكرة أن تستغل جسدها لتوافق على علاقة يرفضها قلبها مع أحد موظّفي مصلحة الجوازات أو مافيا التأشيرات، رغم أن ذلك سيساعدها على حل مشكلتها - كما قال لها ذلك الحيوان صاحب العرض - هي صاحبة مبدأ، هي حرّة، لن تهب نفسها إلا لمن تهواه ويهواها.. هي ليست رخيصة، ليست دمية، ليست إلا «لآدم»..

آدم..

ذلك الملاك الذي هبط من الجنّة إلى أرضها القاحلة ليرويها بالحب والأمل، الذي لا تطمئن إلا بوجوده ولا ترتاح إلا عندما تحتضنه بعينيها، الذي

لا تشعر بالدفء والأمان إلا بقربه، في أوقاتها التي تجمعها به، وقت سيرهما معاً في ذروة البرد من و إلى «الكافيه» ، هو لها دفء الشتاء..

وبمجرد أن يتركها عند الباب ويودّعها بتلك القبلة المعتادة في راحة يدها - وكل قبلة منه كأنها أول قبلة - يبدأ شعورها بالبرد، ويظهر احتياجها للمدفأة!

ضربت كل تلك الأفكار رأسها كأمواج البحر العالية، العنيفة، المتتالية .. كتلك التي أغرقت فرعون موسى.. وأغرقتها !

كل تلك الصرخات الفكرية غلّفتها بوجه مبتسم وصمت مطبق أثناء قيادة «دينا» للسيارة - بعيون متورّمة من كثرة بكائها - في طريق عودتهما للبيت، صمتا وكأنهما تكلّمتا في كل شيئ ولم يتبقى لهما ما تقولاه، وكانتا تستمعان لمحطّة إذاعة «صوت العرب» في الراديو، واستمرّت موجات أفكارها في

التتابع وتحوّلت لأفكار فلسفيّة وهي تستمع باهتمام لذلك المذيع ذو الصوت الجهوري العريض وهو يقول : «صوت العرب من القاهرة» وهل للعرب صوت واحد؟! ما هذا الهراء !

وتصادف اليوم الثاني والعشرين من فبراير، الذكرى السنوية لقيام الوحدة بين مصر وسوريا في عهد الرئيس الأسبق جمال عبد الناصر عام ١٩٥٨م.

- «يا لسخرية القدر» ! هكذا قالها عقلها بصوت يوسف بك وهبي عميد المسرح العربي. واحتفلت الإذاعة المصرية بتلك الذكرى التاريخية بإذاعة خطاب زعيم الأمّة «وقتها» جمال عبد الناصر بمناسبة احتفال الشعب العربي «وقتها أيضا» بقيام الوحدة..

«أيها المواطنون..

في هذه الأيام الخالدة في تاريخ العرب، نحمد الله من كل قلوبنا لأن عهد السيطرة الأجنبية قد انتهى إلى غير رجعة.. عهد الاستعمار.. وعهد التحكّم.. وعهد الدخلاء قد انتهى بفضل توحيد الشعب العربي في الجمهورية العربية المتحدة.. النهاردة.. ونحن نحتفل بقيام الجمهورية العربية المتحدة، كل واحد فينا يشعر أن هذه الجمهورية الجديدة قامت لتمثّل إرادتنا.. قامت بإرادة كل فرد فيكم.. سواء في الشمال في سوريا أو في الجنوب في مصر، مش بإرادة المستعمر.. ولا بإرادة الغاصب.. ولا بإرادة الدخيل.. ولا بإرادة الناس اللي عايزين يحطّونا ضمن مناطق النفوذ.. إنما بإرادة الشعب العربي الحقيقي.

النهاردة يا إخواني يحق لكل واحد فينا وفي أمّة العرب أن يشعر بالعزّة الحقيقية، علشان قبل كده في سنة ١٧ قسّموا العالم العربي.. قسّمونا بالقلم

الرصـاص عـلى الخرايـط إلى دول ودويـلات علشـان نكـون ضمـن مناطـق النفـوذ.. وفرضـوا علينـا تلـك الأوضـاع.. واتّفقـوا مـع اليهـود سـنة ١٧ إنهـم يدّوهـم فلسـطين.. النهـاردة إحنـا الـلي بنقـرر.. مفيـش حـد أجنبـي بيقـرر.. مفيـش حـد دخيـل بيقـرر.. النهـاردة يـا إخـواني مشـيئتنا إحنـا بـس.. إحنـا الشـعب العـربي هـي الـلي ليهـا السـيادة.. هـي الـلي ليهـا القـوة.. هـي الـلي بتقـرر.. هـي الـلي قـررت قيـام الجمهوريـة العربيـة المتحـدة».

حـين انتهـى الخطـاب، كانـت الدمـوع قـد غطّـت وجهيهـما، تبـادلا نظـرة انكسـار لم تـدم طويـلا، قطعتهـا «مهـا» بتقليدهـا ليوسـف بـك وهبـي قائلـة : «يـا للهـول!» ..فانفجرتـا ضاحكتـين !

كـررت «دينـا» طلبهـا مـن «مهـا» أن تبيـت معهـا الليلـة، وأكّـدت الأخـرى على رغبتهـا في ذلـك، لكنهـا واثقـة مـن أنـه سـيعود لصديقتهـا اليـوم، قالـت «مهـا»

بلطف : «محسن راح ييجي لعندك اليوم، وحياة الله راح ييجي، هو كتير بيحبك وما راح يتحمّل إنك تضلّي مسَكره موبايلك كل ها الوقت».

ابتسمت لها دينا ابتسامة جريحة.. أومأت برأسها آملة أن يتحقق ما قالته وأوصلتها لبيتها بعد إلحاح.. ثم عادت إلى قفصها في انتظاره.

***

بمجرّد ركوبهم السيارة في طريق العودة لعشّهم الآمن المطمئن.. بدأت عصافير المقعد الخلفي في «الزّقزقة»، ثم الغناء، ثم اللعب، ثم الصخب، ثم الضرب، ثم الشكوى..

– «يا ماما..جوري بتغش في اللعبة !»

– «مش بغشّ على فكرة..إنت اللي مش بتعرف تلعب !»

- «بس يا أولاد العبوا حلوين، كده مش هناخدكم تاني أبدا واحنا خارجين، هنبقى نسيبكم في البيت بقى علشان تتخانقوا براحتكم، مش كده يا بابا ؟»

كان محسن في وادٍ آخر، لا يسمع إلا صخب أفكاره التي تحول دون سماعه لتلك الثرثارة الجالسة على يمينه.. ولم يطيق احتمال (لماضة) جوري وثرثرتها التي ورثتها عن أمها، ولا عصبية شادي الدائمة ولأتفه الأسباب.. فانفجر صارخا : «اسكتوا بقى ! في إيه ؟ مش عايز أسمع صوت» ومدّ يده للخلف و (قَرَصَ) طفليه !

أما عن تلك الجالسة إلى جواره والتي هي زوجته وأم أولاده فلا اعتبار لها.. هي ليست في حساباته.. هي بالون هواء شفاف موجود باستمرار في حياته يتّكئ عليه كثيرا ولا يراه.. وهو أغبى من أن يدرك أنه قد ينفجر في وجهه في أيّة لحظة !

عـادا معـاً..ولم يعـد أي منهـما مـن واديـه.. واديـان متباعـدان بُعـد المـشرق والمغـرب، لا يجتمعـان عـلى أرض محايـدة إلا أثنـاء حديثهـما عـن كل مـا يخـص الأولاد أو مصروف البيت! هـو شـارد متجهّـم ينتظـر فرصـة لافتعـال مشـكلة تسـاعده عـلى الخـروج مـن قلعتـه الشـامخة إليهـا.. إلى تلـك القطـة المثيرة الجامحـة، التـي يهـوى معهـا كل متعـة ويهـوي بهـا في هـوّة سـحيقة مـا لهـا مـن قـرار، ينسـى معهـا كل مـا دونهـا ويُنسـيها سـواه، وبمجـرد خروجـه منهـا ينسـاها هـي الأخـرى !

ليسـت المشـكلة في خروجـه مـن البيت، المشـكلة هي أنـه يرغـب في المبيت عنـد «دينـا»، تلـك التـي استمالته بضعفهـا الأنثـوي عندمـا رأى دموعهـا وانكسـارها، دموعـاً أشـعلت بحرارتهـا نـيران غريزتـه وهمجيّتـه، فمعاشرتـه لهـا بشـغف وفحولـة هـي الطريقـة المناسـبة مـن وجهـة نظـره لإرضائهـا.. وإشـباعه !

أما عن تلك الملكة منزوعة الجاه.. فهي تشعر بكل شيئ، تشعر بأن هناك خطأ ما.. تشعر بابتعاده عنها.. برفضه لها.. بروتينية وجوده في حضرتها.. لا تقدر إلا على أن تحتفظ بكل الحمم البركانية ولافا المشاعر السلبية في قلبها العنيد.. لتحافظ على مملكتها الزائفة، وعرشها المرصّع بالإبر الموخِزة المُدمية.. ولِفَرط عِنِدها تصر على استمرارها في الجلوس عليه ! تُخفي كل الوجع خلف قناع خشبي ضاحك يدرأ عنها عيون الشامتين، والمتطفّلين، والمشفقين.. ولا يبقي حولها إلا عيون الحاسدين !

***

- كنت عاوزه أشتري شويّة طلبات للبيت واحنا تحت

- ومقلتيش واحنا تحت ليه يعني؟!

- علشان عصبيتَك اللي مش فاهمه سببها دي!

- يعنـي هـو كلامـك دلوقتـي وتفكـيرك المتأخـر دايـماً ده بيهـدّي الأعصـاب مثـلا ؟! إيـه الاسـتفزاز ده ؟! ولا هـو لازم السـوّاق الـلي أبوكـي اشـتراهولك يطلّعكـم البيـت الأول وبعديـن ينـزل يجيـب طلبـات فخامتـك ؟!

- وإنت مالك بأبويا ؟!

- مهـو شـافني النهـاردة كأنـه شـاف عفريـت كالعـادة، وبيبـص لي مـن فـوق لتحـت برضـو كأنـه هـو بـس الـلي دكتـور وأنـا سـبّاك مثـلا ! أنـا سـبت الطـب بمزاجـي، ولـو حبيـت أرجـع أشـتغل دكتـور مـن بكـره ممكـن.. إنـما شـغل البيزنـس والصفقـات والتجـارة مـش أي حـد يعـرف يعملـه، شـغل محتـاج مواهـب مـش عنـد الدكاتـره الـلي مـن عيّنـة أبوكـي !

- قلـت لـك متتكلمـش عـلى بابـا بالطريقـة دي ..إنـت ليـه بتتكلـم كـده ؟! هـو إنـت فاكـر نفسـك مـين؟!

- هتقلّي أدبِك وربنا ما هرحمك ! أنا عارف أنا مين كويس أوي يا هانم.

- الأولاد سامعين صوتنا وزمانهم حبايبي خايفين في أوضهم، من فضلك وطّي صوتَك واتكلّم بأسلوب أرقى من كده !

- البُعبُع اللي مخوّفك انتي وعيالِك سايب لكم البيت وهيغور في داهيه أهو.. علشان ترتاحي منّي ومن أسلوبي اللوكال السوفاج يا ربّة الصون والعفاف.. واخبطي راسك في الحيط بقى .. وابقي انزلي بكره هاتي طلباتك بنفسك يا حرم السبّاك المصون !

- سؤال بعد إذنك قبل ما تغور في داهية .. لما إنت مش طايق أبويا أوي كده كنت عاوز تعمل له عيد ميلاد برّه ليه ؟! وكل ما تشوفه تتكلّم كويس وتتعامل كويس وانت جوّاك كَم الكره ده كلّه ليه؟!

- إتفلسفي ياختي اتفلسفي .. يعني حتى الواحد يوم ما ييجي على نفسه بقت حاجه تحسب عليه مش له .. بصي فلسفتك دي مش معايا.. إجري اكتبيلك كلمتين فارغين من اللي بتضحكي بيهم على عقول الناس اللي بيقرولك، عندي ف بيتي هنا مفيش فلسفة، واحمدي ربنا إني سبتك تكتبي مقالاتك السخيفة في المجلة الهبلة اللي واكله دماغِك دي !

خرج غاضبا كدوّامة إعصار.. وآخر ما دار بينهما.. صفعة الباب !

أسرعت إلى الداخل لتطمئن على فلذتي كبدها، وجدتهما يبكون خوفاً، احتضنتهما ليطمئنّا.. غسلتها براءتهما من كل إهانة..

- ماما .. هو أنا السبب في المشكلة اللي بينك وبين بابا ؟!

- لا يا حبيبي أبدا ..مش انت السبب يا حبيب قلبي.

- يبقى أنا السبب !

- لا يا جوجو، محدش السبب يا حبيبتي، بابا بس متضايق شوية من الشغل.. ولأنه بيحبنا واحنا بنحبّه يبقى لازم منزعلش منه ونعذره لما يكون متضايق.. إيه رأيكم لو دخلنا احنا التلاته دلوقتي نتوضّا ونصلّي العشا وندعي في سجودنا إن بابا يجيلنا مبسوط ومش زعلان أبداً ؟

- فكرة جميلة يا ماما ..يللا بينا .

***

بعد أن خلد طفلاها للنوم، أخذت بنصيحته وقررت أن تكتب.. للكتابة أثر السحر على نفسها، تخفف ما تشعر به من وجع، تأخذها إلى عالمها الذي لا يشاركها فيه أحد، عالم خالٍ من الذل والنفاق، عالم وردي بسماء صافية سحابها فضّي لامع.. يعكس

ضوء شمس أحلامها على حياة اللاحياة التي تحياها ولو لبعض الوقت !

كتبت «رسائل مجتمعيّة» :

«عزيزتي الطفلة..

عندما يضربكِ أبواكِ ويهيناكِ ويربّياكِ بالقهر والقَمع ويلغيا شخصيتِك ويحوّلاكِ إلى مسخ مشوّه..هما في الحقيقة فعلا ذلك لصالحِك..ليربّياكِ على الأخلاق والفضيلة !

***

عزيزتي الفتاة..

عندما يتاح لأخيكِ فِعل كل ما يريد وإن كان حراماً في حين حرمانك من كل متع الحياة وإن كانت حلالاً.. لا تقارني نفسك به.. فأنتِ (بنت) وهو (ولد) . وإن ضربكِ لا تعترضي أو حتى تتنفّسي..فقط اعتذري وعِدِيه بعدم تكرار ذلك الخطأ مرة أخرى ! !

عزيزتي الزوجة..

عندما يفتر زوجك من ناحيتك ولا يكن معكِ مثل أيام زواجكم الأولى فتأكّدي أنكِ زوجة باردة لا تستحق الحب، وأنّكِ أهملتِ نفسكِ حتى انفلت حبّه لامرأة أخرى وأنتِ المدانة ! .. وإن أقام علاقة مع تلك الأخرى فهو خطؤك أيتها السمينة، وإن ترك المنزل غاضباً فذلك لأنكِ مهملة والمنزل غير نظيف كما ينبغي له أن يكون دائماً، وإن ضربكِ هو الآخر فهو يمر بظروف نفسيّة قاسية.. تحمّليه.. وادعي الله في كل صلاة أن يطيل بقاؤه لكم، فأنتِ لا شيئ بدونه، وإن هجرك وتجاهلك، اركعي فوراً تحت قدميه حاملة أكفانكِ وترجّيه أن يعفو ويصفح.. وانظري لنفسك في المرآة، سيطالعكِ وجه لبقايا امرأة أنهكها الإنجاب.. وأسوأ خادمة.. وأكثر الأمهات جهلاً وقسوة، واحمدي الله أنكِ ما زلت له زوجة ولم يستبدلك بأخرى (حتى الآن) تعرف كيف تكون الأنوثة ! !

رسالتي لكِ..

عزيـزتي (الأنثـى) في كل عمـر وكل زمـان.. كـوني قويّـة.. كـوني أنـتِ.. افتخـري بنفسـك ولا تنظـري خلفـك، لا تنتظـري شـكراً مـن أحـد ولا تندمـي عـلى شيء، و لتفعـلي كل مـا تفعليه لكل مـن حولك بحب.. لا تنتظـري مقابـلاً لتضحيّاتـك ولا تنتظـري تقديـراً لمشـاعرك.. هـي أغـلى مـن أن تقـدّر، وإن وزنهـا الرجال بالألمـاس سـتبقى أغـلى.. ردّدي في أعماقـك بـكل فخـر وثبـات أنـك أنثـى كاملـة غـير منقوصـة، ومـن عـاب فيـكِ نقصـا فـما هـو إلا انعـكاس لنفسـه في مرآتـك».

هند الجبالي

٢٠١٦/٢/٢٣



ذهب إليها.. وجدها غارقة في نومها على وسادة من دموع.. لمسها لمسات تنضح شهوة..أفزعتها.. لكنّها ابتسمت ابتسامة تشي بسعادتها بسبب عودته إليها الآن.. كادت تنطق أولى كلماتها، لكنّه حرّك إصبعه على شفتيها ووضعه في فمها، لم تملك إلا أن تستجيب لما يريد وأن تنصاع لطلبه هذا بالسمع والطاعة !

كانت ليلة جامحة.. أرضى فيها أنوثتها لأقصى مدى.. أشبعها عشقاً أطفأ لهيب غريزتها، لكنّه لم يطفئ نيران مشاعرها الجريحة.. تردد في أذنها صوت «مها» وهي تمازحها وتناديها ب «العاهرة»، قتلها شعورها بأنها مستضعفة ومستباحة لأنه بعد أن انتهى معها ومنها قام إلى الحمّام بسرعة، ثم ارتدى ثيابه التي جاء لها بها على عجل وانصرف.. منذ حضوره وحتى انصرافه لم يقل كلمة واحدة !

***

دخلت إلى قدس أقداسها.. بيتها.. خلعت نعليها.. أدارت مشغّل الموسيقى لينساب منه ذلك الصوت الرقراق إلى روحها عبر أذنيها، ليغسل بنقائه كل ما صادفته على مدار يومها.. شَدَت فيروز ..

بعدك على بالي

يا قمر الحلوين

يا زهرة تشرين

يا دهبي الغالي..

آدم.. هو آدم وليس على بالها سواه، فيه كل تلك الأوصاف وربما أكثر.. اشتاقته كثيراً.. تخلو الحياة من كل حلو في غيابه، فالحياة ليست حياة بدونه، هي حياة بلا تفاصيل رغم الصخب والضجيج، ورغم انخراطها فيها أحياناً.. إلا أنها لا تنشغل عنه أبدا.

أما هو.. فيحترم انشغالها لأقصى درجة إن أخبرته أنها مشغولة مع إحدى صديقاتها أو مشغولة بشيئ ما، لا يزعجها برسائل أو اتصالات، ينتظرها بلهفة وشغف لا حدود لهما، تشعر بكل ذلك بمجرد أن تتصل هي به بعد انتهائها مما شغلها عنه.

أسرعت في الاتصال به لأنها تعلم بأنه ينتظرها بلهفة كل عشاق الأرض، وبالفعل.. بمجرد أن بدأ هاتفه في الرنين أجاب الاتصال فوراً، وكأنه كان في حالة ترقّب ممسكاً هاتفه بيديه ناظراً إليه بنفاذ صبر وعميق توسّل ورجاء !

- آلو..

- أهلا حبيبة عمري.

- «استطردت ممازحة» : كيفك يا حلو يا مغرور ؟

ارتسمت على وجهه ابتسامة خبيثة بعد أن سمع صوت فيروز وأجابها:

- حـد يقـول كـده لدهبـه الغـالي برضـو ؟! انتـي عارفـه جـرام الدهـب وصـل لـكام اليومـين دول ؟ شـوفي بقـى أنـا كام جـرام..

ضحكـت ضحكـة صادقـة مـن قلبهـا خرجـت مدوّيـة مـن بـين شـفتيها.. بـدّدت كل ضيـق وحـزن شـعرت بـه خـلال يومهـا الطويـل المتعـب..

- «دينا» أخبارها إيه دلوقتي ؟

- أحسـن كتـير .. الحمـد لله إني مـا تركتـا لحـالا اليـوم.. كتـير كانـت محتاجتنـي .. شـكرا.

- شكرا على إيه يا حبيبتي؟! أنـا الـلي بشـكرك على وجـودك في حيـاتي.. بشـكرك عـلى نـورك الـلي نـوّر لي طريقـي وأيامـي.. بشـكرك على الأمـل في حيـاة حلـوة والـلي وهبتيـه ليّـا بمنتهـى الكـرم بوجـودك جنبـي !

استـمعا سـويا للعديـد مـن أغنيـات فـيروز التـي أضفـت عـلى حديثهـا سـحراً وروعـة.. غلبهـا النعـاس

وهـي تتحـدّث إليـه عـبر الأثـير.. أنهـى المكالمـة لأنـه يعلـم مـدى احتياجهـا لنـوم عميـق.. وآخـر مـا سـمعته واعيـة..

طيري يا طيارة طيري

يا ورق وخيطان

بدّي ارجع بنت صغيرة

على سطح الجيران

وينساني الزمان ..

على سطح الجيران..

ثم راحت في نوم عميق.. عميق جداً.

أصوات غارات وطائرات حربيّة .. بيوت تنهار.. صراخ هنـا وهنـاك.. دمـاء تجـري عـلى الأرض أنهـاراً وأشـلاءً تمـلأ المـكان.. وصـوت طفـولي يـصرخ بملء حنجرتـه في أذنهـا .. مامـا !

أفاقـت مـن نومهـا فزعـة وصـوت فـيروز مـا زال منسـابا حولهـا ..

وأنا صرت إكبر

وشادي بعده صغير

عم يلعب ع التلج

بكـت بـكاءً هسـتيريا.. كل مـا فيهـا يرتجـف.. شربـت بعـض المـاء سـاكبة نصفـه عـلى صدرهـا مـن فـرط ارتعـاش يديهـا، كابـوس رهيـب.. خلـع قلبهـا وأطـاح بسـحر أمسـيتها، وهـوى بهـا إلى بطـن قـبر !

***

أنستها كل مـا حـدث لهـا ليلتهـا، شـغلتها تمامـاً عـن نفسـها، وذابـت في وجـع صديقـة عمرهـا مـن رأسـها حتـى قدميهـا عندمـا ذهبـت «مهـا» إليهـا صبـاح اليـوم التـالي، وارتسـمت عـلى وجههـا علامـات الفـزع وهـي تحكـي لهـا عـن ذلـك الكابـوس اللعـين .

وتذكّرت «دينا» مناقشاتها مع «د.أكرم» حول حالة «مها» والتي أكّد لها فيها أن هناك أمل كبير في أن تستعيد صديقتها ذكرياتها المفقودة أو جزءاً منها إن تقبّلت الواقع، وإن تصالحت مع نفسها، كما أكّد لها أن كثير ممن مرّوا بظروف مشابهة قد استعادوا ذاكرتهم بعد فترة.

وها قد بدأ ماضيها يعود لها على شكل كابوس في نومها.. واحتارت «دينا» من موقفها من «مها» ، هل تريد لها أن تستعيد ذاكرتها أم لا؟ هل ستكون «مها» سعيدة إن حدث ذلك؟ هي غير واثقة ! ترى «مها» تبتهل إلى الله تعالى في كل وقت أن تعود لها ذاكرتها، لكن.. هل ستكون سعيدة بعدها؟ قد ترتاح، لكنها أبدا لن تكون سعيدة، فالذكريات التعيسة في ماضٍ بائس ليست إلا مصدر ألم أبدي، هي تسعى لفتح ذلك الصندوق الأسود بكل ما أوتيت من قوة، لكنها لن تجد فيه إلا قنبلة ستنفجر في وجهها لتفسد عليها حاضرها.. وكل آتٍ !

- شربتي قهوتك ؟

- لكان ليش جيت لك أنا ؟! منشان نشرب قهوتنا سوا.

وبدأت «دينا» تحكي عن (شهامة) محسن أثناء وجوده معها ليلة أمس، وقالت كذباً أنه صالحها وراضاها.. قالت على لسانه أنها كل ما يحب.. كل ما يريد.. كل ما يهمّه في هذه الدنيا بمن عليها ! قالت ما لم يقله.. قالت ما تمنّت أن يقوله وقتها.. قالت ذلك حتى لا تثبت لصديقتها صحة نظريتها التي أثبتت لها فيها بمرور الأيام أنها بالفعل «عاهرة».. هي تعلم أنها عاهرة في نظر صديقتها منذ الأزل، ومؤخراً تأكّدت أنها عاهرة في نظر «محسن»، الجديد أنها صارت ترى عاهرة كلما نظرت في المرآة !

كما أنها لم تحكي لها عن مشاعرها و ما حدث في نفسها ليس للمكابرة وفقط، لكن حتى لا تزيد

فوق وجع صديقتها وجعاً.. يكفيها نصيبها من الهم والفزع بسبب ذلك الكابوس الذي رأت آثاره على صديقتها، وبعد أن حدّثتها عنه دعت الله في سرّها ألا تتذكر «مها» شيئاً من ماضيها أبداً !

***

رنّ هاتفها مساءً.. لم ترد.. فهي مشغولة جدا بطفليها، تذاكر لهما وتساعدهما في حل الواجبات المنزليّة، وتسمع منهما تلك الثرثرة اليوميّة البريئة والمشكلات التي لا تنتهي بمنتهى الصبر والحنان.

رنّ الهاتف مرّة ثانية..

وثالثة..

أجابت أخيراً لتجد أمها تصرخ فيها بصوت متهدّج باكٍ:

- هند.. الحقيني يا بنتي.. أبوكي !

تركت شادي وجوري لجارتها، أسرعت في الذهاب إلى بيت أبيها لتجد أمها تنتظرها في الشارع..

ركبت السيّارة معها صائحة بانفعال: « يللاع المركز» !

– في إيه يا ماما ؟! ماله بابا ؟

أجابتها الأم بدموع أغرقت تجاعيد وجهها ولم تنطق، ولم تكرر «هند» السؤال..

دخلتا من باب المركز وعلى وجه كل من فيه ذهول المفاجأة، نظرت لهما موظفة الاستقبال بإشفاق قائلةً: البقاء لله .

صرخت الأم وسقطت مغشياً عليها، أما هي.. لم تصرخ، لم تبكي، فتحت باب عيادته بمنتهى الثبات تحت تأثير الصدمة، وجدته ممددا على السرير الذي طالما تمدد عليه مرضاه أمامه، صار

جمادا ككل ما حوله، اقتربت منه بهدوء.. قبّلت جبينه، سقطت دموعها على وجهه وهمست في أذنه: «ليتني عرفتك أكثر.. ليتك عرفتني أكثر.. حاولت قدر استطاعتي أن أنال رضاك.. أن أجعلك فخوراً بي.. آسفة أني فشلت في ذلك.. لكني أحببتك.. وتمنّيتُ أن تحبّني أنت أيضاً» .. ثم انفجرت باكية.

ربّت «محسن» على كتفها، ضمّها لصدره، ليس لها سواه لتبكي بين أحضانه، لم ترفض عرضه السخي باحتوائه لها، فهو رغم كل شيئ السند، هو الظهر، هو الأمان، هو «أبو العيال» !

***

وصل المُشيّعون قُبيل صلاة الظهر، امتلأ المسجد عن آخره بالمصلين من مسقط رأس المُتوفِّى، ومن زملاء الدراسة، وممن كان للدكتور أكرم فضل عليهم في العلم والعمل، فقد كان قدوة ومَثَل أعلى للكثيرين.. صلّى بهم إمام المسجد «الشيخ نبيل»

صديق محسن صلاة الظهر، ثم صلاة الجنازة، ثم شيّع الجمع الغفير الفقيد إلى مثواه الأخير.. وقفوا على قبره.. دعوا له جميعاً بالثبات عند السؤال.. علا نحيب النساء وعلت أصوات الرجال الزاجرة لهنّ والتي تطالبهنّ باحترام حرمة القبور.

ولم تكن «هند» كسائر النساء.. وقفت صامتة.. لم تبكي.. ولم تواسي أمّها التي تصرخ ملئ حنجرتها، كانت تراقب المشهد ببصر زائغ وكأنها دخلت في كادر فيلم سينمائي، تكاد تجزم أنها ستجد أباها في عيادته إن ذهبت إلى مركزه الطبي الآن.. وقد يتذمّر وينهرها؛ لأنها حضرت إليه بغير موعد سابق وعطّلته عن «الشغل» !



في سرادق العزاء، اصطفّ أقرب المقرَّبون في مدخل الرجال ليأخذوا «الخاطر» ممن حضروا ليقدّموا أحرّ تعازيهم لأسرة الفقيد، ووقف في آخر الصف إلى جوار «محسن» صديقه «الشيخ نبيل» بزيّه الرسمي.. زي المشايخ الذي يفضّل أن يظهر به في مثل هذه المناسبات الرسميّة، وسأل صاحبه وهو يحاوره..

– أمّال فين مراتك؟

– مع الستات الناحية التانية .

– لأ مقصدش دي.. أقصد التانيه !

– إنت بتهرّج يا «نبيل» ؟! اسكت هتفضحني الله يخرب بيتك.. اللي واقف جنبنا ده يبقى خالها.

– خال دينا ؟!

– وربنا انت بتستعبط !

- خلاص يا عم متزعلش أوي كده هسكت، بس على فكرة إنت صاحب أي كلام ومش جدع، قلت لي هتجوّزني صاحبتها وعشّمتني بيها.. وكل اللي عملته إنك هزّيت طولك ورتّبت لنا المقابلة النحس إيّاها، ومن يومها لا حس ولا خبر، والبت أصلاً كانت قاعدة طول رحلة المركب مضروبه بالجزمة وسرحانة كإنها جايه مغصوبة، وكل ما كنت بحاول اتكلم أو أفتح معاها أي موضوع مكانتش بترد عليا أصلا !

- ما انت اللي معرفتش تميّل دماغها يا عم «نبيل»، أديك شفت بنفسك أنا ودينا عاملين إزاي والبت بتموت فيا إزاي الله أكبر في عينك النهاردة الخميس.. فإنت اللي قفل.

- أنا قفل ؟!

- أيوه.. وقفل مصدّي كمان.. ليك شوق في حاجة؟

انتبهـا إلى تلـك الابتسـامة العريضـة التـي علـت وجـه كل منهـما.. وانتبهـا إلى صوتهـما الـذي اسـتمر في الارتفـاع تدريجيـا حتـى صـار مسـموعا لمـن هـم في محيطهـم، وانتبهـا إلى عـدم مناسـبة الظـرف لذلـك المزاح غـير المقبـول عندما عـاد المقـرئ مـرة أخـرى مـن اسـتراحته وبـدأ في تـلاوة مـا تيسّر مـن آيـات الذكـر الحكيـم.. أشـار «محسـن» ل «نبيـل» بالصمـت، وهـزّ الآخـر رأسـه بالموافقـة.

***

انشـغل عنهـا كثـيراً بالأخـرى، أو بالأحـرى.. بـالأولى، شـعر بـضرورة بقائـه مـع «هنـد» معظـم الوقـت.. ربـما لأنـه أحـسّ بانكسـارها، ربـما لأنـه لان لدموعهـا التـي لا تجـف، ربـما لأنـه شـعر بالذنـب والتقصـير عندمـا رآهـا تذبـل وتجـف يومـاً بعـد يـوم..

صـارت صامتـة.. توقّفـت تمامـاً عـن تلـك الثرثـرة التـي كانـت تزعجـه.. هـي لا تتذكّـر الطلبـات متأخـراً

كسابق عهدها، لأنها الآن لا تطلب منه أي شيئ أصلا. كفّنت أوجاعها في أوراقها وسرى حبر قلمها مختلطاً بدمائها التي تجري في عروقها..

كلما ضجرت.. كتبت

كلما تعبت.. كتبت

كلما تألّمت.. كتبت

وكأنّها تكتب لتفرّغ قلبها وعقلها من أي ثورة محتملة على ما تعيشه، لكي لا تتخطى ثورتها دفّتي مذكراتها اليومية، أو صفحتها المخصصة لها في المجلّة التي تكتب فيها !

تكتب لتتمسّك بحقها في الحياة التي ترى أنها تستحقّها، وإن كانت حياة إفتراضيّة !

أما هو..

فتمنّى أن يسمعها تثرثر ثانية، تمنّى أن يشعر بروحها حيّة – بعدما اغتالها بخنجر إهماله لها – في

كل أرجاء المنزل لتمنحه الدفء والحياة مرّة أخرى، تمنّى أن يعود لطبخها ذلك المذاق الذي طالما أحبّه ولم يجده في أفخر المطاعم.. مذاق الحب !

وأما «هند» ..

فهي تعلم أن لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه، وستستمر الحياة بينهما حتى تفنى الحياة.. وستحافظ على ذلك البرواز الجميل الذي يكبّلها - قدر استطاعتها - لينظر لها طفلاها دائما من خلاله، وتكون في عينيهما «أحسن أم في الدنيا» كما يقولان لها دوماً.. هي لن تكون تلك الأم المستهترة التي تنفصل عن «أبو العيال» وتحرم أبناءها من وجودهم في حياته لمجرّد أنها تختنق وتذبل.. لن تنفصل أبداً لتطالب بحقّها في الحياة.. ستذبل محتضنة طفليها.. ستذبل ويبقى أريج عطرها لهم.. ولن تكف عن دعائها في كل صلاة أن يرضيه الله بها وأن يرضيها به !

***

«مهـا» .. أمـيرة الألـوان في دنيـا السّـواد، التـي لا تعـرف مـا فعلتـه سـابقاً في حياتهـا لتسـتحق كل هـذه المعانـاة وكل هـذا الألم، طردهـا صاحـب الكافيـه مـن عملهـا لأنهـا لم تسـتجب لمحاولاتـه القـذرة معهـا، طردهـا لأنـه لم يحتمل أن يراهـا تتنفّس حبـاً وحياةً برفقة آدم.. فارسـها النبيـل الـذي وعدهـا أنـه لن يتركهـا أبداً، وأنـه سيبقى معهـا أبداً، الـذي بعـد أن علـم بـما حـدث لهـا تركهـا وهـرب! اختفـى مـن حياتهـا نهائيـاً لأنـه سبّب لهـا «مشـاكل» ! أهـذا هـو رد الفعـل المناسـب؟!

«أبَعـدَ كل مـا كان بيننـا وبعـد كل مـا وعـدت بأنـه سـوف يكـون تهـرب مني وتتركني وحيـدة مستضعفة أواجـه حيـاتي بدونـك؟»

هكـذا حدّثتهـا نفسـها وهـي تسـمع رنّـة هاتفـه المحمـول بـلا إجابـة، ربـما للمـرة الألـف منـذ اختفائـه بـلا مقدّمـات، بـلا مـبررات، بـلا أعـذار وبـلا اعتـذار !

«ربما كانت دينا محقّة من البداية، ربما كان عليها أن تُعمِل عقلها وأن تختار شريكاً لها في مأساتها، كان يجب عليها أن تختار من يؤمّن لها حياة مستقرة، كان عليها أن تترك رفاهية الحب لمن استطاع إليه سبيلا» !

كان ذلك الصوت هو صوت عقلها.

أما الآخر.. الخافق بالوجع بين ضلوعها لا يلومها أبداً على مشاعرها التي وهبتها له، ليس خطأً أن تعشق، حتى إن كان العشق لمن لا يستحق.. يكفيها شرف المحاولة، محاولة أن تعيش وسط الذئاب الطامعة بشرف.

ماذا لو مات ؟

ربما بسكتة قلبية، أو صدمته سيارة مسرعة أردته قتيلا.. أو أفقدته ذاكرته هو الآخر !

سئمت من اختلاق الأعذار..

سئمت من رنين هاتفه كلما اتصلت به..

سئمت من توسّلاتها ل «دينا» بأن تساعدها في الوصول إليه لتعرف سر اختفائه عنها دون جدوى !

وسئمت من البحث عن عمل آخر..

سئمت من رؤية السوريات المتسوّلات في الشوارع بأطباق الحلوى..

سئمت من اغتيال براءة أطفال الشوارع الحفاة بإجبارهم على تلطيخ زجاج السيارات الفارهة بالفوط المتّسخة بقذارة الطبقيّة من أجل حفنة جنيهات يأخذها منهم من يجبروهم على ذلك بعد ضربهم بوحشية وإهانتهم بأبشع الألفاظ كالحيوانات !

سئمت من جلسات العلاج وقررت التوقّف عنها بعد وفاة الدكتور أكرم.. فهي غير مجدية على كل حال !

«ربما من الأفضل لي أن أبقى بلا ذاكرة !» انتصر عقلها على قلبها في هذه الجولة بتلك الجملة .. ما يؤلمها

الآن ليس أنها بلا ماضي وفقط، بل لأنها صارت بلا حاضر أيضا .. تسلّل اليأس إلى نفسها حتى فرض عليها قوانينه وسطوته، وأعاد رسم ملامح وجهها مرة أخرى.. فأصبحت نظرتها أشبه بنظرة ذلك الطفل الذاهل الذي انهار منزله فوق رأسه ورأس عائلته وجلس في سيارة الإسعاف كأن على رأسه الطير.. ما أشبهها الآن في ذهولها ولا مبالاتها ب «عمران دقنيش» الذي ما أن رأته في نشرة الأخبار حتى رأت فيه حاضرها، وربما مستقبلها أيضاً ..



لم تجد أمامها سوى «خالد» لترجوه أن يساعدها.. أن يخرجها من تلك القرية الظالم أهلها كما أتى بها.. لن تعود إلى «سوريا» طبعاً، هى لا تفكر في أن تعود لأهلها أو حتى أن تتصل بهم، ما دامت قد هربت من جحيمهم فلا معنى لعودتها لهم.. فالمكان الذي فقدت فيه سعادتها لن تعود إليه ببلاهة لتصنع فيه سعادة أخرى !

طلبت منه أن يساعدها في أن تهاجر إلى أوروبا .. قد ينشق لها البحر بالخير والنجاة كما شقّه الله تعالى لبني إسرائيل، وقد ينطبق عليها كما انطبق على فرعون وجنوده.. لكنها لن تقف مكتوفة اليدين، ف «محسن» وأشباهه من ورائها والبحر أمامها..اتّخذت قرارها بأنها لن تنتظر حتى تصبح من (الرقّ الأبيض) في (بلاد المسلمين بلا إسلام)، أسمى أمانيها الآن هي أن تحيا حياة كريمة في (بلاد خُلُق من فيها الإسلام .. بلا مسلمين) ترددت

تلك المقولة المنسوبة «لمحمد عبده » - رحمة الله عليه - وهي تتخذ قرارها بيقين لا تردد فيه..

وعدها «خالد» أن يحاول.. ووعدته بأن تظلّ مدينة له بحياتها إن أمدّها الله بعمر جديد، وكانت مشيئته لها بحياة أخرى على أرض غير الأرض.

***

التعوّد..

هو ذلك السم الزّعاف الذي تسلل إلى شرايين الشغف فقتله.. لم تعد له تلك الرغبة الجامحة فيها، صار يعاملها وكأنها من الثوابت في حياته، كذلك المقعد الوثير الذي يجلس عليه أو كجهاز التحكم عن بُعد الخاص بالتلفاز أو التكييف، أهملها هي الأخرى كما أهمل الأولى قبلها.. صار يعاملها بكل برود وصلف، ويتوقّع منها أن تجثو بمشاعرها تحت قدميه!

هيهات أن ترخّص نفسها له، لن ترضى أن تعامل معاملة المناديل الورقيّة، يسحبها وقتما شاء.. يفعل بها ما يشاء.. ثم يلقيها في أقرب سلّة نفايات.. ولا يقربها حتى يحتاج منديلا آخر ! ..وتتابعت مشاعرها في التدفق ..

«ما أغباك ! أتظن أني سأظل أسيرة هذا القفص العَفِنِ أبد الدهر ؟! أتظن أني سأكون غبيّة ك «هند» ؟! أنا أستحق أن أُعامَل كملكة متوّجة.. كأميرة.. ليس عندي ذلك الوقت لأضيّعه مع (لطخ) مثلك»

وكانت قد تعلّمت هذه الكلمة من ذلك الشاب الوسيم الذي تعرفت عليه حديثا من «الفيس بوك» .. الذي تحدّثه ويحدّثها أثناء غياب «اللطخ» عنها، وحدث بينها وبين «رامي» ما حدث بينها وبين «محسن» منذ زمن ليس ببعيد..

نشأت بينهما علاقة إلكترونية منذ شهر، لم يراها ولم تراه - حتى الآن- إلا بالكاميرا، لكنه رأى منها ورأت منه ما جعلهما كالمجاذيب.. أعطاها من الاهتمام والمشاعر وكلمات الحب وإيحاءات الجنس ما يرضيها كأنثى، لم تهتم بأنها زوجة «اللطخ» كما أسماه «رامي»..

فقد أجبرتها الظروف على الاستمرار معه لتبقى لها الإقامة الشرعية.. وأجبرها «لطخها» أيضا على عدم الإنجاب؛ لأنه لا ينوي أن يكون زواجهما علنيا أبداً تحت أي ظرف، لأنه يخشى على مشاعر «السيدة الأولى»، وليمارس دوره المبتذل كزوج متديّن محترم محب لأطفاله حريص عليهم للأبد بلا مخاوف ولا تهديدات. لكن الظروف لن تجبرها أبدا على أن تدفن نفسها وقلبها بعد أن تكفّنهما بقسيمة زواجها منه !

وهـا قـد بـدأ «محسـن» في تمثيـل دور آخـر .. دور السـند والظهـر.. يحـاول باسـتماته أن يعـوّض «هنـد» عـن ظهرهـا الـذي انكسر بوفـاة والدهـا مـع أنـه يعلـم جيـداً مـدى توتـر علاقتهـا بالمرحـوم، ويعلـم أنهـا لم تتأثـر بوفاتـه ولم يوجعهـا غيابـه، في الحقيقـة.. هـي تشـعر أنـه مسـافر وسـيعود قريبـاً.. هـي لا تشـعر حتـى بافتقـاده ! لكـن .. يعجبهـا اهتـمام الأقـارب الدائـم بهـا وسـؤالهم الـدوري عنهـا، ويعجبهـا وجـود «محسـن» إلى جوارهـا، وهـو يجدهـا فرصـة سـانحة ليبـدو أمامهـا وأمـام الجميـع رمـزاً للأصالـة والشـهامة !

وفي جبهتـه الأخـرى .. صـار في عينيهـا «لطخـا» بامتيـاز مـع مرتبـة «الـشرف» !

عـادت «دينـا» لهوايتهـا السـابقة في التواصـل الاجتماعـي الإلكـتروني، ولأنهـا جميلـة.. ولأنهـا سـاحرة.. ولأنهـا لبقـة.. ولأنهـا شـبقة.. ولأنهـا جذابـة.. هـي حلـم للكثيريـن.. أولهـم «رامـي».

وصارت زيارة «محسن» روتينية ثقيلة على قلبها، ما إن يأتي حتى تتمنى أن يختفي سريعاً من أمامها.. لتعود لشاشتها السحرية التي تسافر بها إلى شتى بقاع الأرض وهي على سريرها.

***



***

تاريخ اليوم..

٢ سبتمبر ٢٠١٦..

قـد يكـون تاريـخ البدايـة.. وقـد يكـون تاريـخ النهايـة.

لم تحزم أمتعة.. لم ترتب حقائبها ككل المسافرين..

لملمـت مـا تبقـى لهـا مـن ذكريـات حديثـة تعيسـة في عقلهـا المنهـك، ولم تأخـذ معهـا إلا قلبهـا الكسـير، وملـف أوراقهـا الثبوتيّـة في كيـس بلاسـتيكي ملفـوف حـول خصرهـا بإحـكام.

لم تـودّع «دينـا» وجهـاً لوجـه، اكتفـت فقـط بإبلاغهـا بموعـد مغـادرة (سـفينتها) مـن أحـد شـواطئ رشـيد، والتـي سـتبحر في بطـن البحـر المتوسـط أمـلاً في الوصـول إلى «إيطاليـا». ووعدتهـا بأنهـا سـتتصل بهـا فـور وصولهـا هنـاك لتطمئنهـا - إن كتـب الله لهـا السـلامة - .

لم تنتظر «مها» أن تسمع من «دينا» أكثر من بكاء ونحيب، وهذا هو ما حدث بالفعل.. أنهت المكالمة معها لأنها لم تحتمل توسلاتها لها بالرجوع عن قرار الهجرة غير الشرعيّة، وعلى الرغم من معارضة «دينا» لها منذ أن طرحت عليها الفكرة، إلا أنها هي التي أقرضتها النقود اللازمة لتلك الرحلة المجهولة.. تعلم «مها» أن فراقهما مؤقت، فهي لن تستغني عن وجود «دينا» في حياتها، وتعلم أن «دينا» لم و لن تتخلى عنها أبداً مهما شجر بينهما من خلافات واختلافات في وجهات النظر.. ستظل «دينا» ركناً ركيناً من حياة «مها» إن كتب الله تعالى لها مزيدا من الحياة.

كان موعد تجمّع المقامرين بحياتهم في أحلك لحظات الليل.. قُبيل الفجر، على الشاطئ، ركبت «مها» قارب الصيد المتهالك هي ومن معها بمنتهى الهدوء والسرعة حتى لا يُفتضح أمرهم، تحرّك

القارب حركة أصابتها بالدوار والغثيان، ولم يمنعها ذلك من مراقبة الشاطئ والنظر إليه بتمعّن..

لمحت «دينا» تلوّح لها بكلتا يديها من بعيد، حضرت لوداعها متأخرة والحمد لله أنها تأخّرت.. لن تستطيع احتمال وداعها ودموعها الآن..

واندهشت عندما رأته يركض هو الآخر باتجاه «دينا» وينظر للقارب المبتعد عنه بأسف وحسرة.. نعم .. هو.. آدم !

«آلآن» ؟! ما الذي أتى به ؟! هي لن تقفز في الماء من أجله .. فليذهب إلى الجحيم بلا رجعة غير مأسوف عليه.. صاحت بأعلى صوتها ليسمعها : إذا كنت بتريدني ما كنت راح تتركني لوحدي كل ها الوقت !

نَهَرها كل من على القارب لأنها ستلفت نظر خفر السواحل إليهم.. أسكتوها.. جلست القرفصاء على

أرض القارب ساندة رأسها بيديها لكي لا تقع من فوق كتفيها ..

بعد حوالي ساعة من صمت كل من على القارب.. سأل أحد الجالسين إلى جوارها آخر عن اسمه، ليبدأ معه حوار يقتل به الوقت والخوف، فردّ عليه قائلا..

أنا..

أنا الكائن الصّفري

ف معادلة مصر

أنا اللي ف كل حساباتها

بساوي الصفر !

وانا اللي بموت فدا ترابها

أو المقتول لإرهابها

وانا اللي رسمت بعبوري

ف عينها النصر

بين الخاينين أنا المُخلِص

وانا المسجون عشان مُفلِس

برغم ان اللي يسرق كل أحلامها

بيسكن قصر !

أنا المنسي في حساباتها وخطّتها

وانا المرووش في جمعيّاتها وأقساطها

أنا الغرقان عشان عاجز

رموني من سفينتها

في عرض البحر

أنا المَحنِي على أرضي

عشان أنقذها مر الدّوده

وانا اللي ربطت على بطني

حزام ناشف.. عشان مواردها محدوده !

أنا المربوط في ساقيتها

عشان أروي أراضيها

في عز البرد برويها ..وعز الحر

أنا المرمي ف مستشفى

ما لاقي سرير

عشان مش لاقي تأمينها

مانيش «باشا» .. مليش «دبابير»

مليش ثروة تنسّي اللي بيسألني

عن التأمين وختم النسر

أنا اللي بخشّ مستوصف

بتذكرته ام خمسة جنية

علشان يداووني م الكحّه

فَيبلوني بفيروس «سي»

أنا اللي بقاسي وبعاني

وانا المشكوك في إيماني

أنا بيكفّروا فكري

عشان شايف في دينا اليسر !

أنا المخنوق من الزّحمه

أنا المطحون عشان لقمه

أنا خدّام لأسيادها في وقت الخير

وانا القائم بأعمالها في وقت العُسر

أنا مصري..

عاشقها وهيّ ناسياني

شايف خيرها في كل مكان

ومش عارف ليه.. حارماني؟!

في أزمتها بكون إنسان

في فرحتها بكون كائن .. يساوي الصّفر !

❋❋❋

رغم حبّهما الشديد لبعضهما.. ورغم اعتقاد كل منهما بأن الأخرى لا تُخفي عليها خافية.. إلا أن بداخل كل منهما صندوقاً أسود.. تحفظ فيه كل منهما أسرارها في منأى عن أخت روحها.

أخفت «مها» الكثير من الأسرار عن «دينا»..

أخفت عنها المدى الحقيقي الذي وصلت إليه في علاقتها ب «آدم»، لم تقل لها أنه كان يعاشرها معاشرة الأزواج، لم تقل لها أنها كانت تنعتها بالعاهرة وهي في حقيقة الأمر أشرف منها وأطهر!

أما «دينا».. فقد أخفت عن «مها» ما هو أكثر بكثير.. أخفت عنها علاقتها ب «رامي» حتى لا تؤكّد لها صحة كلامها.. لأنها صارت بالفعل عاهرة.

والأهم..

أنها أخفت عنها ماضيها وحاضرها.. أخفت عنها أنها كانت أم لطفل جميل، كان كل حياتها..

نزلـت إلى السـوق صباح يـوم مـن أيـام الحـرب اللعينـة تاركـة ملاكهـا نائـما في حضـن والـده في بيتهـما الكائـن بنفـس البنايـة التـي تسـكنها العائلتـين.. عائلتهـا وعائلـة زوجهـا، لأن زوجهـا هـو ابـن عمّهـا.. «وليـد»، الـذي أحبّتـه منـذ صغرهـا.. وكان «نـصر» الابـن الأول لحبّهـما.. عـادت مـن السـوق لتجـد بيتهـا حطامـا إثـر انفجـار قنبلـة بالقـرب منه أودت بحيـاة كل مـن تحـب.. ابنهـا، زوجهـا، والدهـا، والدتهـا، إخوتهـا، عمهـا وعمتهـا.. كانـت هـي النّاجيـة الوحيـدة مـن تلـك المأسـاة..

ظلّـت فاقـدة للنطـق فـترة مـن هـول الصدمـة حتـى نجحـت في الخـروج مـن سـوريا بصحبـة «دينـا» صديقـة طفولتهـا التـي انتقلـت إلى منطقـة أخـرى مجـاورة قبـل الحـادث البشـع ببضعـة أسـابيع.

لم تكـن تبكـي كثـيراً.. فقـد فـاق ألمهـا بفقـدان كل أحبابهـا دفعـة واحـدة حـدّ البـكاء.. كانـت كالبلهـاء تحـدّق في الفـراغ.. ومـا أن سـقطت مـن السـيارة (البيـك آب) في طريقهـا ل «أسـوان» مـن «بـور سـودان» حتـى فقـدت الذاكـرة تمامـا.. وكأنّهـا اختـارت أن تنسـى هـول مـا مـرّت بـه، قاومهـا عقلهـا ولم يطاوعهـا عـلى التذكّـر.. ومـن أعنـف مظاهـر تلـك المقاومـة أنّـه خَلَـقَ لهـا شـخصية «آدم» !

«آدم» شـخصية مـن صنـع خيالهـا المريـض الـذي أبـى وبقـوة أن يسـاعد عقلهـا عـلى أن يتذكّـر ماضيهـا الأليـم !

وكانـت أهـم تعليـمات الطبيـب الراحـل د. أكـرم ل «دينـا» ألا تصدمهـا أبـدا.. ألا تصارحهـا بـأن «آدم» شـخص خيـالي وأنهـا خلقتـه مـن فـرط تشـبّعها بالرفـض لذكرياتهـا وذاكرتهـا، وحذّرهـا مـن خطـورة المواجهـة؛ لأنهـا قـد تـؤدّي إلى انتكاسـة لا يعلـم مداهـا إلا الله..

حاولت «دينا» مراراً وتكراراً أن تساعد «مها» على أن تعيش حياة واقعيّة بعيدة عن الوهم.. حاولت أن تساعدها على أن تتزوّج، ربما إن صار في حياتها رجلا حقيقيا سيكون بإمكانها أن تحيا حياة سويّة.. وكان قلبها يتمزّق وهي تراها تكلّم نفسها.. ذهبت «دينا» لصاحب الكافيه الذي كانت تعمل فيه «مها» .. توسّلت إليه أن يُبقي عليها، لكنه قال لها أنها صارت تكلّم نفسها كثيراً أمام الزبائن بشكل زائد عن الحد.. مما كان له ضرر كبير على سمعة المحل بالكامل، وأوقعهم ذلك في مشاكل لا حصر لها..

لذلك.. لم تغضب «دينا» من «مها» أبدا كلما نعتتها بالعاهرة.. وكانت تدعو الله لها من كل قلبها أن يمنّ عليها بالشفاء والمعافاة..

صحيح أنها أخفت عنها الكثير.. وكذبت عليها الكثير والكثير من المرات.. لكنها صدقتها القول

عندما قالت لها بأنها لا تعرف من الذي كتب لها تلك الورقة الصفراء الباقي عطرها رغم اختفاء كل شيئ دونها.. لم تعرف حقا من هو صاحب خاطرة « صفراء فاقع لونها» ..

تمت بحمد الله

ذُبحت «مها» وضربتكم ببعضها لتصارحوا أنفسكم وتعترفوا بأن «وطني حبيبي الوطن الأكبر» مفعولاً به .. وبأنه أيضا .. فاعل !

مها الدسوقي

الخميس الموافق ٢٠١٧/١١/١٦

شكر واجب

لزميلي الشاعر / أسامة عبد المنعم على قصيدته «الكائن الصفري».

التواصل مع داركتاب

Email : darkitabone@gmail.com

fasbook : darkitabone

البدج داركتاب

٠١٠٩٧٥٥٣٣٢٨